وزارة الثقافة

في ذمة العرب

تأليف: نجيب نصار

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

في ذمَّةِ العرب

تأليف: نجيب نصار

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٣٣
عن مطبعة الكرمل في حيفا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: نجيب نصَّار
اسم الكتاب: في ذمَّة العرب
الطبعة الأولى: ١٩٣٣ عن مطبعة الكرمل في حيفا

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنان: داود زلاطيمو

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

في ذمَّةِ العَرَب

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

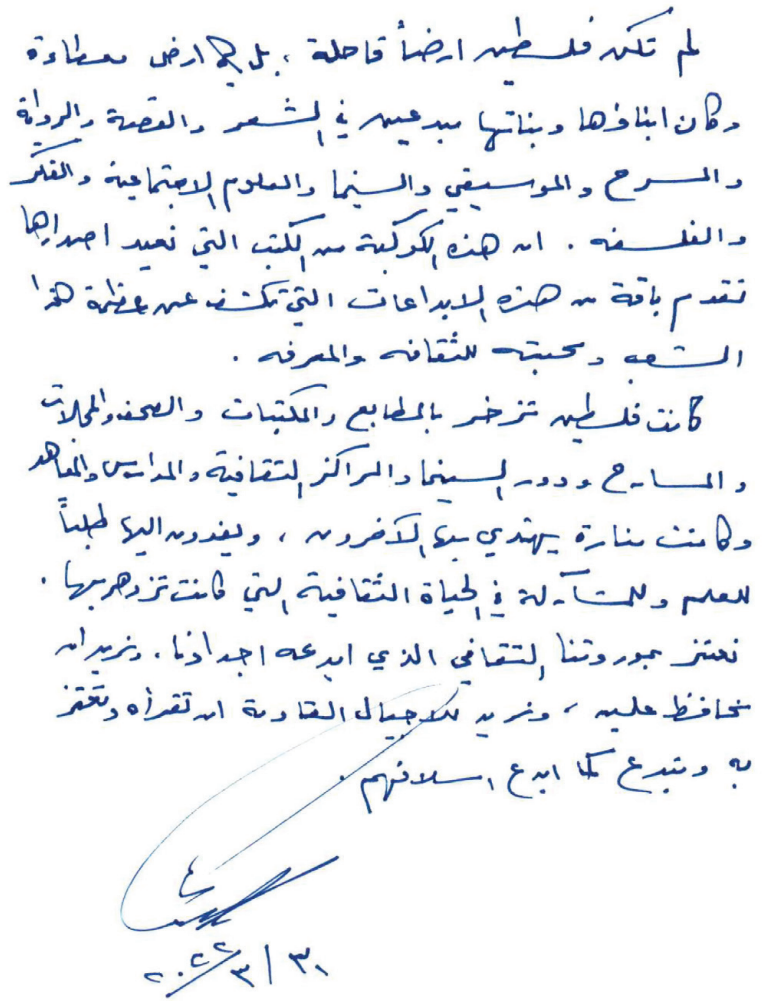
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض عطاء
وكان ابناؤها وبناتها سبّاقين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لهذا الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز بجذورنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٤/٣/٣٠

في ذمَّة العرب

في صباح يوم من أيام ربيع سنة ٦١١ للمسيح، كان النعمان بن المنذر اللخمي ملك (الحيرة) جالسًا في ديوانه وبين يديه رجل يدعى (عدي بن أوس)، فسُمِع النعمان يخاطبه قائلًا:

- إني مرتاح جدًّا يا «ابن اوس» بما تمّ على يدي من بناء السدود وعمليات الريّ، فقد سهّلت على قومي استثمار معظم أراضيهم وأمّمت اقتصاديات البلاد وما عدت أخاف على شعبي شر الفقر إذا متّ.

ثم أطرق قليلًا كأنه يفكر في أمر ذي بال، ورفع رأسه بغتة وإذا بسحنته قد انقلبت وأسارير وجهه تقطبت، فتفرس في «عدي» ورشقه بسهم حاد من نظره خرق إلى أعماق قلبه، فارتعد الرجل وخشي غضب الملك وأطرق.

فقال الملك بصوت أجشّ وبلهجة تشفّ عن حرارة في نفس كبيرة: «أصغِ يا هذا فلقد اصطفيتك نديمًا لأمرين، لذكائك وإخلاصك، متى تكلمت تفهم مرادي ومتى سألتك رأيك أجبت بما يمليه عليك فكرك وقلبك».

فرفع ابن أوس رأسه ونظر إلى الملك نظرة الإجلال وتظاهر بالإصغاء متأدبًا، فاستطرد الملك النعمان قائلًا:

- إني أرى ضعف العرب مسببا عن قوتهم.

- إذا أذِنَ لي الملك سألت كيف ذلك؟

- أرى كل زعيم أو بالأحرى كل رئيس قبيلة يطلب الزعامة العليا ويعتقد بكفاءته لها فيأبى الانقياد لغيره ويطلب القيادة لنفسه، وهكذا يتفرق الزعماء ويقع الخلاف بينهم ولست أرى للعرب مخرجًا إلا بقيام زعيم نابغة يتغلب بقوة عقله وحسن إدارته وحزمه على عقول سائر الزعماء ويستميلهم إليه، أو بتعقل جماعة من الزعماء واختيار زعيم من بينهم يقيمونه رئيسًا ويجعلون أمرهم فيما بينهم شورى، فالعرب لا يمكن أن يستفيدوا من قواهم الكامنة في نفس كل فرد منهم ويستثمروها إلا إذا نظموها وقلّدوا زمامها زعامة حكيمة حازمة.

فتظاهر ابن أوس بالإعجاب بنظريات النعمان، ولكنها أيقظت في نفسه شعور الحسد الذي جعله يتقرب من الملك ليَكيدَ لخصمه ولو كان من أخلص الناس للملك وأشدهم حرصًا على مصلحة قومه، فخطر له أن يستفيد من إخلاص الملك ويستخدم سلطته في تنفيذ مآربه الخبيثة، شأن كلّ حسود ونمّام يسعى ليستولي على قلوب الملوك وذوي السلطات بالتزلف وبالتظاهر بأن ما يقوله ويفعله إنما هو لخدمة أغراضهم الشريفة، والحسود يتحاشى الانتقاد والصراحة مخافة أن

يسيء لذوي المقامات العالية، في حين أنه يعمل دائمًا على دسّ السم في الدسم ويجتهد في تسويد صحائف المخلصين والسعي بهم. وأضعف ذوي السلطات عزيمةً هم أشدهم خوفًا من الانتقاد وأكثرهم رغبة في تقريب المنافقين منهم.

رأى الملك في عينيّ عدي بن أوس أنه غاص في لجة الأفكار فصرفه، وما هي إلا هنيهة حتى دخل الحاجب يستأذن العدي بن زيد في الدخول.

* * * * *

كان عدي بن زيد رجلًا من أكارم العرب يحسن التكلم بالفارسية فاصطفاه «كسرى» ترجمانًا بينه وبني العرب. وكان يقيم تسعة أشهر كل سنة بباب كسرى ويصرف الثلاثة الباقية في وطنه العراق تاركًا أخاه في مقامه.

فلما عاد إلى العراق في تلك السنة أراد أن يزور مليكه النعمان بن المنذر لأنه كان يحبه محبة شديدة، وهو الذي حَسّن لكسرى توليته أمر العراق، فلما دخل على النعمان رحب به وأكرم وفادته وسأله عن حاله وعن سياسة الإيوان، فقصّ عليه عدي كل ما يعلم ولم يخفِ عنه أن إياس بن قبيصة يسعى به.

فتأفف النعمان وقال: «ألسنا نحن الذين نذلت أنفسنا بتحاسدنا وتفرقنا؟ فلما لم يحترم واحدنا الآخر ونعزز بعضنا بعضًا ونظهر بمظهر الرجل الواحد أمام الغير فسنبقى خولًا وعبيدًا لغيرنا في بلادنا».

فقال عدي بن زيد: «طِب نفسًا أيها الملك فابن قبيصة لا ينالك بسوء لأن مقامك عزيز في عيون كسرى».

- لا يسيئني يا ولدي سعي ابن قبيصة بي لدى كسرى، إنما يسيئني أن يستبدل أمراء العرب بعزة نفوسهم الخسة ويزدرينا الأعاجم. وهل يرفع ابن قبيصة إمارته ما دام يعوّد نفسه على الدنايا؟ أَوَليس أن راعي الإبل الذي يحترم قومه ويفاخر بأحسابهم وأنسابهم أكبر نفسًا وأعظم قدرًا ممن يطلب الإمارة بالخيانة؟

- مولاي، إن راعي الإبل يعرف معنى الحرية الحقيقية لأنه بعيد عن قصور الملوك.

- أوَ تعني أن كل من له صلة بالقصور وأصحابها يكون عبدًا؟

- نعم إذ لم يكن مطبوعًا على الإباء والشهامة.

- وهل من قوم أكثر شهامة وإباء من العرب! فما لي أرى بعض أمرائهم كابن قبيصة يستنزلون؟

- هو الاستعباد الطويل الذي يصغّر نفوس الأمراء فيلجأون إلى أذل الطرق للاحتفاظ بمقامهم، ولا ريب أن الملك يذكر قصة موسى كيف تاه ببني إسرائيل أربعين سنة في البرية لينسيهم ذل الاستعباد ويفسح الحال للبداوة الخشنة الحرة البعيدة عن الأسر، والتعبد بعادات الحضارة وحاجاتها الكثيرة وأمجادها الكافية وفخفختها وترفها لترى منهم نفوسًا عزيزة.

- إذن أنت تعتقد معي أن مدنية الفرس والرومان، ولست أعني المدنية الفعلية بل الانغماس في اللهو والترف والاسترسال في إشباع شهوات النفس ستقضي على عظمة هاتين الدولتين؟

- لا شك في ذلك، إذا لم يقم في الأمتين مصلحون يقاومون فساد الأخلاق ويقوّمون سبل المدنية لكي لا يراها الشعب في غير العلم والعمل واحترام العادات الطيبة والتزام الاعتدال في الأكل واللباس وردع النفس عن كل ما يؤثر على الشهامة والعصبية ويضعف العزائم.

- أصغِ إليّ يا عدي، إن ثقتي بك عظيمة، وإني أذكر لك حسن بلائك في دفاعك عن مصالح العرب لدى كسرى، وأشكر لك مساعدتك على حمله على توليتي أمر العراق لكي أنهض به وأجمع شتات العرب مستعينًا برفاقي الأمراء لنستعد للطوارئ، فإني أتوقع انقلابًا قريبًا مدهشًا، ولستُ أعرف له سببًا إلا ما أرى من انغماس أولي الأمر من الفرس وفوضى آرائهم وما أسمعه عن تداعي امبراطورية الروم العظيمة بسبب انغماس رجال الروم في اللهو والطرب وتقليدهم المهام للأغراب من الأسرى. وخلاصة القول يجب أن نُعنى بأمورنا، فإذا داهمتنا الخطوب تلقيناها ونحن وقوف، وإذا التهى عنا الفرس بأنفسهم كنا قادرين على أن ندبر شؤوننا بأنفسنا، وإذا صلح حالهم نكون كُفئًا لمطالبتهم بعقد محالفة على قاعدة المساواة، فنحن وإياهم جيران ومصالحنا مرتبطة ارتباطًا يستحيل انفكاكه.

قال الملك هذا ونهض من مقعده وصرف ابن زيد الذي زادت منزلة الملك رفعة في نفسه، وهو يفكر كيف يستطيع أن يوسع له نفوذه لدى كسرى ليمكنه من النجاح في عمله.

صرف الملك عدي بن زيد وهو مسرور بإخلاصه، ولكنه بقي قلقًا لما عرفه عن أن إياسًا لا يزال يسيء إليه علانية ويزاحمه ويطلب مقامه. فدخل إلى غرفة الديوان العائلي وكانت عقيلته المتجردة وهي من اللواتي تفوّقن بجمالهن حتى أن نابغة بني ذبيان كان يشبب بها، ورجحت عقولهن فكثيرًا ما كانت تساعد زوجها الملك على تصريف المشاكل وكانت تنتظره مع شقيقته «سعاد» وهي فتاة بارعة الجمال رصينة، وابنته الحرقة هي آية بجمالها أيضًا وذكائها وجنانها.

وما كاد الملك يصل إلى الباب حتى شخصت إليه أنظار أفراد أسرته الكريمة الخُلق والخَلق، وأشرقت الوجوه لمرآه، أما هو فمن شدة تعلقه بهم نسي قلقه، فقامت الحرقة للحال وقبّلت يده وقادته بدلالها المعتاد وأجلسته بين أمها وعمتها، فتفرست المتجردة في عينيه ولم يخفَ على عينيها أنه يوجد في قلبه شواغل تعكر صفاء ابتسامته الحلوة فقالت:

- هل زار سيدي عدي بن أوس اليوم؟

فقال: نعم، وعدي بن زيد.

- وهل قَدِم هذا الرجل الشريف من عند كسرى؟ إني أحترم إخلاصه

بعكس ابن أوس يا نعمان، فإن في داخلي شعور عدم اطمئنان له وأود ألا تعتمد عليه ولا تثق به قبل أن تمتحن إخلاصه في جملة أمور.

فقال: والأمر كما تريدين.

ثم فطنت المتجردة أن ابن زيد جاء من المدائن قبل ميعاده، فسألت النعمان إذا كان سأل ابن زيد عن ذلك أو هو ذكر عنه شيئًا، فأجاب الملك أن ذلك لم يخطر له ببال ولكنه ازداد قلقًا، وحَسِب مجيءَ «ابن زيد» قبل ميعاده المعتاد سببًا سياسيًّا.

فشعرت المتجردة بما أحدثه سؤالها. وقالت:

- هل قال لك ابن زيد شيئًا؟

فقال: «أخبر أن ابن قبيصة لا يزال يسعى بنا وقال إنه لا يبلغ منا مَنالًا عند كسرى».

فقالت: «بارك الله في ابن زيد، إنه صادق اللهجة وساهر على واجبه، ولكن ألا تظن يا نعمان أنه يحسن بك أن تجتمع بابن قبيصة وتفاوضه في مَن منكما أنفع لمصلحة العرب فيتنازل للآخر عن الولاية؟

فقال النعمان: «ما كان أعجلني للقيام بهذا الأمر لو كان ابن قبيصة كالمزدلف مثلًا حسن النية والمقصد».

وما كاد النعمان يلفظ كلمته الأخيرة حتى وقف حاجب في الباب وقال:

- أعـرابي بباب القـصر يطلب مقابلة الملك لأمرٍ هام.

فقـال الملـك: «أدخلـه وانتظـر وإيـاه قدومـي». ثـم التفـت الملـك إلى المتجـردة وقـال: «فلنقـضِ حاجـة هـذا الأعـرابي الهامـة مخافـة أن يكـون الانتظـار ضـارًّا بـه». وعـاد الملـك إلى ديوانـه الخـاص ومـا كاد يسـتوي بـه المـكان حتـى أمـر بإدخـال الأعـرابي، فدخـل وحيّـا قائـلًا: «أبيْـتَ اللعـن».

فقال الملـك: أَلَك حاجة نقضيها يا رجل؟

- بـل لي خدمة أقدمها للملك.

- شـكرًا لك عليها، وما عسـاها أن تكون؟

- اسـتدعاني عـدي بـن زيـد إليـه وقـال أترعـى ذمـة العـرب! قلـتُ كيـف لا وأنـا عـربي، قـال أَتحـب مصلحتهـم! قلـت كيـف لا وأنـا منهـم، قـال خُـذ هذا الكتـاب إلى كـسرى بسرعـة وحـاذر أن يـراه أحـد. ونقـدني خمسـة دنانـير، ولمـا كنـت أظـن بسـبب مـن «لعـدي» مـا العلاقـة بالإيـوان إن هـذا الكتـاب سـياسي وربمـا يتعلـق بملـك العـرب جئـت بـه إليـك لـترى رأيـك فيـه.

وقـال النعـمان وقـد ظهـر الغضـب في نـبرات أقوالـه: «وهـل بلغـت بـك الدنـاءة أن تخـون مـن يأتمنـك عـلى أمـوره ويسـتخدمك في مهامـه ثـم تـأتي وتعـترف أمامـي باقترافـك هـذا الذنـب المهـين؟».

فبهـت الأعـرابي قليـلًا لهـذه الصدمـة التـي لم يكـن يتوقعهـا، ثـم عـاد فاسـتجمع قـواه وسـكن جأشـه فقـال مماطـلًا ليربـح الوقـت ويسـتنبط الحيلـة: وهـل يعتـبر مـولاي عمـلي المملـوء بالإخـلاص لمصلحـة العـرب

الممثلــة في شــخص النعــمان خيانــة؟!

- نعم إنها لخيانة كبرى، ولولا حسـن نيتك لأمرت بقطع رأسـك.

- إذا ظهــر في عمــلي خدمــة للملــك فــلا بــأس بقطــع رأسي إن لم تعقبــه الندامــة التــي يشــعر بهــا المــرء عندمــا يقابــل الحســنة بالســيئة.

- نحــن ســننظر في أمــر هــذا الكتــاب، أمــا أنــت فــلا تعــد إلى مثــل هــذه الخســة وإلا عاقبتــك فانــصرِف.

فخــرج الأعــرابي مــن لــدن النعــمان وهــو لا يصــدق أنــه أفلــت وسَــلِم مــن هــذه الورطــة التــي زجّ نفســه فيهــا، وأطلــق ســاقية للريــح فلــم يعــد النعــمان يــراه.

أمــا النعــمان فاشــتغل ذهنــه بالكتــاب وأحــب أن يطلــع عــلى مــا فيــه، وكثــيرًا مــا يــبرر الملــوك والحكومــات مثــل هــذا العمــل بدعــوى أنــه نافــع للمصلحــة العامــة في حــين أنــه أعظــم خطــرًا عليهــا، فالملــك والإدارة لا يصونهــما شيء مثــل العــدل نحــو الشــعب والعمــل لنهضتــه. أمــا الجاسوســية ومــا كان مــن قبيلهــا فإنهــا تشــغل أذهــان الحــكام وتــصرف عقولهــم عــن واجباتهــم الشريفــة إلى الاشــتغال بالدســائس فتــضر بنفوســهم ويفقــدون الثقــة بالنــاس، كــما أن النــاس يفقــدون الثقــة بهــم ويقــلّ اعتبارهــم لهــم.

قــرّ رأي النعــمان عــلى الاطــلاع عــلى مــا في الكتــاب، وكان ذلــك القــرار فاتحــة طالعــه المنحــوس ومفتــاح شر مســتطير، ولــو درى بمــا ســيجرّه عــلى عملــه لأرســل يطلــب عــدي بــن زيــد ويوصيــه أن يأتمــن مــن هــو أســمى خلقًــا

مـن ذلـك الأعـرابي الـدنيء، ولـو فعـل ذلـك لتوصـل إلى الحقيقـة مـن دون عنـاء كبـير، ولاتقـى المصائـب عـن بيتـه، ولكـن كثـيرًا مـا تعمـي الأقـدارُ الأبصـارَ وتسـتخدم أصحـاب المقامـات كآلات عميـاء لتجـري في مجاريهـا.

فتـح النعمان الكتاب وإذا فيه ما يأتي:

«إلى ملـك الملوك ابرويز كسرى،

مـن عبده عدي بن زيد..

أمـا بعـد فـإن الملـك النعـمان الـذي وليتـه أمـر العـراق انحـرف عـن خدمـة مـولاه وإذا بقيـت لـه القـوة فقـد يكـون خطـرًا عـلى الملـك».

دهـش النعـمان وبـرد الـدم في عروقـه، ولكنـه صعـب عليـه التصـور بـأن عربيًّـا كريمًـا شريفًـا كابـن زيـد يقـدم عـلى مثـل هـذه النقيصـة، فأعـاد تـلاوة الكتـاب وهـو لا يصـدق بـصره، ثـم أخـذ يتأمـل في الخـط فتأكـد لـه أنـه خـط عـدي بـن زيـد، فـازداد ارتبـاكًا، والمـرء يشـعر عـادة في أوقـات اضطرابـه بحاجتـه إلى الاسـتعانة بـرأي أصدقائـه.

فخطـر لـه أن يطلـع ابـن أوس عـلى هـذه الدسيسـة ويسـأله رأيـه فيهـا، فأرسـل مـن جـاء بـه إليـه ودفـع إليـه الكتـاب فأخـذه ابـن أوس وشرع يقلـب بـصره ويعمـل فكـره فيـه إلى أن سـأله النعـمان:

- ومـا ظنك بهذا الكتاب؟

- وإن كنت من خصوم ابن زيد فإني لا أظنه يأتي عملًا كهذا، وإذا أراد الوشاية بك فلا أخاله يسلم أسراره للناس بل ينتظر إلى أن يعود إلى المدائن وهناك يقول لكسرى ما يريد.

ثم أطرق ابن أوس قليلًا ورفع رأسه كمن فطن إلى أمر هام وقال: بلغني أن ابن زيد خلافًا لعادته عرج على ابن قبيصة وهو قادم من المدائن فأقام عنده أيامًا، وأكرم ابن قبيصة وفادته غاية الإكرام، فضلًا عن أن مجيء ابن زيد إلى العراق في هذه المرة سابق لأوانه. أفلا تدعو هذه الأمور إلى الظن بأن لمجيء ابن زيد صيغة سياسية في هذه المرة؟ أَوَلا يمكن أن يكون لهذا الكتاب علاقة بذلك؟

قال هذا ثم نفض ثوبه كمن شعر بشيء من توبيخ الضمير، فأثار هذا الكلام شكوك النعمان وصار يرى الأحوال كلها تدعو إلى الاشتباه بعدي بن زيد الذي لم يكن يعلم بما يجري وراءه، ثم وقف ليصرف عدي بن أوس، ودعا إليه المتجردة وقرأ عليها الكتاب.

فاضطربت وقالت له:

- هذا لا يمكن أن يكون، أنا لا أغيّر حسن ظني بابن زيد، ولكن يخيّل إليّ أننا أصبحنا محاطين بالدسائس.

فقال النعمان: سبحان الله إن النساء مهما اتسعت مداركهن يبقين أسرى عواطفهن. أنتِ يا متجردة بما أنك أحسنتِ الظن بابن زيد فما عدتِ تصدقين أنه يرتكب فرية!

- كلا يـا نعـمان، إن ابـن زيـد يتخلّـق بأخـلاق العـرب الشريفـة، ومَـن كانـت هـذه صفاتـه فهـو يبقـى بعيـدًا عـن الدنايـا ولـو أراد ابـن زيـد أن يـشيَ بـك لمـا عـدم وسـيلة يؤثـر بهـا عـلى كـسرى وهـو دائمًـا في بابـه، ومَـن راجـع حيـاة ابـن زيـد السياسـية يجـزم ببُعـد هـذا الرجـل عـن الدنايـا، ومـا دام الأمـر كذلـك فابحـث عـن هـذا الكتـاب مـن طريـق أخـرى إذا شـئت أن تقـف عـلى الحقيقـة.

فقال النعمان: حسـنًا تقولين.

فقامـت المتجردة من عنده ودخلت إلى غرفتها.

القبض على ابن زيد

أمر الملك باستدعاء رئيس الشرطة وأمره بإلقاء القبض على «عدي بن زيد» وإيداعه السجن.

فعَظُمَ الأمر على الرئيس ووقف مترددًا.

فقال له النعمان: ما بالك لا تزال واقفًا؟ ألم تفهم ما أمرتك به؟!

فأجاب: بلى يا مولاي.

- وماذا تنتظر إذن؟

- شيمتنا الصراحة، فأنا لا يطاوعني ضميري على هذا العمل.

فأنف النعمان من جواب الرئيس وسأله قائلًا:

- تعني أنك لا تطيع أوامري أم تخشى من عقوبة كسرى وأنا الذي أمرك؟

- لا هذا ولا ذاك، وإنما أنا أعتقد أن عدي بن زيد رجل من الذين شرّفتهم أخلاقهم قبل أنسابهم، فلا أمد يدي إلى كريم من أكارم العرب وأعامله معاملة المجرمين.

فغضب النعمان وقال له: أقتلك! فانتزع الرئيس سيفه وأسنده إلى الحائط بلطف ووقف متأدبًا ينتظر أوامر الملك فأومأ إليه أن ينصرف، وأمر الحاجبَ أن يستدعي رئيس الشرطة الثاني فجاء ومَثُل بين يدي

النعـمان فقـال لـه: جعلتـك رئيسًـا أولًا للشرطـة فأرسِـل مـن رجالـك مـن يقبـض عـلى عـدي ابـن زيـد، وضعـه في غرفـة خاصـة مـن غـرف السـجن ريثـما آمـرك، وأعلمنـي بمـا فعلـت، فَحَيّـا وخـرج.

النعمان ونساؤه

أمـا النعـمان فدخـل إلى ديوانـه الخـاص حيـث كانـت المتجـردة تقـصّ عـلى سـعاد والحرقـة حكايـة الكتـاب، فلـما دخـل نظـرن كلهـن إليـه، وإذا علامـات الاضطـراب باديـة عـلى وجهـه، فاسـتقبلته الحرقـة وقبّلـت يـده وبَشّـت لـه وسـألته عـن سـبب اضطرابـه، فابتسـم لهـا متكلفًـا وقـال:

- ما من شيء يسـتدعي قلقك يا ولدي.

وجلس الملك وجلسـت ابنته الحرقة واتكأت على صدره.

فسـألته المتجردة: عسـاك اهتديت إلى مفتاح السر؟

- لا، ولكنـي أمـرت بالقبـض عـلى عـدي بـن زيـد وبتوقيفـه لئـلا يفـرّ بينـما نفحـص الحقيقـة.

فارتعشـت الحرقـة التـي كانـت شـعلة ذكاء لهـذا النبـأ وقالـت بلهجـة حـادة: وكيـف اسـتطعت يـا والـدي أن تقبـض عـلى هـذا الرجـل الشريـف الـذي خدمـك خدمـات جليلـة وأخلـص لـك ولقومـه ومهّـد لـك السـبيل لتخـدم بـلادك وتبلـغ مـا بلغـت مـن الشـهرة؟ أليـس القبـض عليـه مخالفـة لعاداتنـا وتقاليدنـا؟

فأجابهـا النعـمان: إنـك تتكلمـين بإلهـام قلبك الطاهـر ولسـتِ تعلمين ضروب السياسـة التـي تفسـد قلـوب الرجـال وتتقلـب مـع التقاليـد والمبـادئ. اتـركي

لي هـذا الأمـر يـا ولـدي وأنـا أصرفـه، وإني أعـدك وأعـد والدتـك بالـتروي والمحافظـة عـلى كرامـة ابـن زيـد إلى أن تظهـر براءتـه أو جنايتـه.

فقالت الفتـاة: ولكنك بقبضك عليه...

فقاطعها النعمان قائلًا:

- دعـي عنـكِ السياسـة، وحدّثينـا مـا خطـر لـك في هـذا اليـوم مـن الأحـلام الجميلـة.

- قلبـي يحدثنـي يـا أبي إننـا إذا أهملنـا تقاليدنـا وسـذاجتنا وأصغينـا إلى دسـائس الذيـن يتزلفـون مـن القصـور فإننـا نشـقى ونُشـقي غيرنـا.

- كوني مطمئنة يا بنية فإني لا أجلب عليكِ الشـقاء.

فقالـت المتجـردة: ولكـن يجـب علينـا ألا نجلـب الشـقاء عـلى غيرنـا وخصوصًـا عـلى مَـن أحسـن إلينـا.

فأجابهـا النعـمان قائـلًا: إن الذيـن يشـتغلون بالسياسـة كابـن زيـد لا يهمّهـم الحجـز عليهـم ليـوم أو يومـين ريثـما تتحقـق الشـبهات بهـم، ومَـن يكـون هـذا الموقـف موقفـه يألـف مثـل هـذه الحـوادث ويعـذر الملـوك عليهـا فـلا يجـزع منهـا ولا تؤثـر عـلى نفسـه ولا يسـتهجنها.

وبينـما هم في هـذا الحديث قرع الحاجب الباب وقال:

- إن رئيـس الشرطة ينتظر أمر الملك.

فقـام النعـمان ودخل إلى ديوانه فحيّـاه رئيس الشرطة تحية عربية وقال:

- عملتُ بأمر الملك.

فقـال النعـمان: وهـل أوقفتمـوه في غرفـة حسـنة مفروشـة وأوصيتـم الشرطـة باحترامـه وإكرامـه؟

- نعم يا مولاي.

- وهل قال لك شـيئًا؟

- نعـم دفع إليّ هذا الكتاب.

فتناولـه الملك وفضّه وإذا فيه:

إلى النعـمان ملك الحيرة من عدي بن زيد،

لقـد اسـتغربتُ أمـر الملـك بالقبـض عـليّ، فمتـى كان العـرب يقبضـون عـلى ضيوفهـم ويسـجنونهم؟

يا مندر كافيت بالود سـخطه

فـماذا جزاء المجرم المتبغض

فـإن جزاء الخير منك كرامة

ولسـت لنصح فيك بالمتعرض

فلـم يحفـل النعـمان بكتـاب عـدي هـذا ولا أتى عـلى ذكـره، فعـاد عـدي وكتـب إليـه ثانيـة يقـول:

إن للدهـر صولة فاحذرها

ولمـا تنامنّ قد أمنت الدهورا

قـد يبيت الفتى صحيحًا فيردى

بعـد ما كان آمنًا مسرورا

إنما الدهر لين ونطوح

تدك العظم واهيًا مكسـورا

فسـل الناس أين آل قبيس

طحطح الدهر قبلهم سـابورا

خطفته منيةٌ فتردى

وهـو في الملك يأمل التعميرا

وبنـو الأصفر الملوك كذا لم

يـترك الدهر منهم مذكورا»

فغضـب النعـمان لمـا قـرأ هـذه الأبيـات وعـوّل عـلى الانتقـام مـن ابـن زيـد الـذي كان قـد بلـغ خـبر سـجنه مسـامع هـاني بـن مسـعود.

هاني بن مسعود

سمع هاني هذا الخبر فأكبره ولم يشأ أن يكون ابن المنذر في طليعة المخالفين لتقاليد قومهم لئلا يقتدي به صعاليك العرب، وكان هو شديد المحافظة عليها.

فركب في جماعة من عبيده وأسرع إلى الحيرة ونزل ضيفًا على النعمان فأكرم وفادته ورحب به كثيرًا.

أما هاني فقد صمم على ألا يذوق زاد النعمان أو شرابه قبل أن ينهي قضية عدي.

اضطرب النعمان لما رفض هاني أن يذوق ما قدم له من الشراب، وأدرك أن هاني قدم لأمر خطير. فالتفت إليه مستفهمًا منتظرًا منه أن يفصح عن غرضه. أما هاني فاقتصر على الرفض، وصمت قليلًا ثم عاد فنظر إلى النعمان وأخذ يسأله بكل احتشام ورصانة ممزوجة ببعض النشوفة عن حال عائلته وحال الحيرة والعراق، وكان النعمان يجيب عليها وذهنه مشتغل وقد خطر له أن هاني ربما جاء في قضية عدي بن زيد، وللحال شعر بحراجة موقفه لأنه يصعب عليه أن يرد طلب ابن مسعود من جهة، ومن جهة أخرى فقد أصبح ناقمًا على عدي ولم يعد يفكر بغير الانتقام منه.

وبينما هما كذلك دخلت المتجردة وسعاد والحرقة، للسلام على هاني، فوقف لهنّ هذا وصافحهنّ باحترام وأفسح للمتجردة صدر المجلس

فجلسـت فيـه، وجلسـت سـعاد والحرقـة إلى جانبيهـا.

ثـم التفتـت المتجـردة إلى هـاني ورحبّـت بـه باشّـة فشـكرها، ثـم سـألته عـن أهله.

فأحـبّ النعـمان أن يسـتفيد مـن الموقـف والتفـت إلى الحرقـة وقـال: هـاتي شرابًـا لعمـك فهـو بـلا ريـب تعـب مـن مشـقة السـفر. فنهضـت سـعاد والحرقـة للحـال وقالـت سـعاد:

- أَوَلم يـشرب الأمير شرابًا بعد!

فقـال هـاني: أشـكر لكـما كـرم أخلاقكـما يـا خـيرة أمـيرات العـرب، ولكـن الباعـث لعـدم شربي هـو كـوني صاحـب حاجـة وأشـكر اهتمامكـما بي، فلعـل وجودكـما في المجلـس يعينـني عـلى قضائهـا لـدى ملـك العـرب.

فقالـت المتجردة: وهل من حاجة يتعـذر قضاؤها بينك وبين النعمان!

فقـال النعـمان: كل حاجـة لـك مقضيـة عندنـا إلا حاجـة عـدي بـن زيـد، فعسـاك غـير آتٍ بصددهـا.

فأجـاب هـاني: إن قضية عدي هي التي أوجبت قدومي.

فقـصّ النعـمان عـلى هـاني حكايـة الكتـاب ومـا علمـه مـن ابـن أوس عـن ذيولهـا، وقـال: هـذا مـا دعـاني أن أقبـض عـلى ابـن زيـد لأحـول دون فسـاده وإضراره بمصالـح العـرب.

فقال هاني: إن صفات عدي بن زيد وأخلاقه وتصرفاته السابقة ليس فيها ما يبعث الارتياب بأنه يقدم على مثل هذه الدنايا، وأنت لم تذكر أنك استجوبته أو حصلت على ما يثبت هذه الجريمة.

فقال النعمان: خطّ الكتاب مشابه لخط عدي كل المشابهة، ولدينا أيضًا شهادة الأعرابي عليه الذي دفع إليه عدي الكتاب ليوصله إلى كسرى، ويوجد بعض القرائن ذكرتها لك.

فقالت المتجردة: إن الحكم على الخط يحتاج إلى مدققين اختصاصيين بالخطوط.

وقالت سعاد: أخشى أن يكون في الأمر دسيسة، فعساك تكون قد قبضت على الأعرابي لتفحص منه!

وقالت الحرقة وقد رشقت والدها بسهام عينيها الحادّتين: إن رجلًا كعدي بن زيد إذا زار خصومنا لا يزورهم ليتآمر معهم علينا، وإن لم يكن قد زارهم لإصلاح ذات البين بيننا وبينهم فتكون زيارته لأمر لا يتعلق بنا.

وقال ابن مسعود: إذا دعونا عديًّا إلى هنا واستفسرنا منه عن الكتاب تتجلى لنا الحقيقة، إن لم يكن كلها فبعضها، ومن هذا البعض نتوصل إلى معرفة الكل.

فعظم الطلب على النعمان لأنه لم يرد أن يتدخل هاني في شؤون الأحكام، وخشي من جهة أخرى أن تسفر النتيجة عن إفلات ابن زيد

مـن يـده وقـد صـار يشـعر بكراهيتـه وميلـه إلى الانتقـام منـه، فأجابـه: إن المسـألة لا تسـتحق كل هـذا الاهتـمام.

فانتفـض هـاني وقـال: بـل هـي تسـتحق أكـثر منـه، لأنهـا لا تتعلـق بشـخص عـدي فقـط بـل بمخالفـة تقاليـد العـرب التـي نحـن قوّامـون عليهـا، فـلا يجـوز لأحـد مـن أمـراء العـرب أن يتجـاوز عـلى الضعيـف قبـل التقـاضي معـه وثبـوت الحـق عنـده.

النعـمان: لا تنسَ يا هاني أني ملك العراق.

هـاني: لسـت بنـاسٍ أيهـا الملـك، ولكـن مقامـك الكبـير يجـب أن يزيـدك حرصًـا عـلى تقاليدنـا ويجعلـك قـدوة في التدقيـق بالمحافظـة عليهـا. فالعبـث بهـا يجعـل أمورنـا فـوضى ويـسيء سـمعتنا، ولا أكتمـك أني آتٍ باسـم كل بطـون ربيعـة لأطلـب منـك إطـلاق سراح ابـن زيـد لتتقـاضى وإيـاه عـلى أصـول العشـائر ويحكـم القـاضي عليـه، لا أنـت لأنـك خصمـه، وأعتقـد أن شـيمتك العربيـة توجـب عليـك الإذعـان للحـق واحـترام التقاليـد وشـكر غـير الرؤسـاء عـلى محافظتهـا ونـصرة الضعيـف.

النعـمان: كـن أنـت وسـائر رؤسـاء القبائـل عـلى تمـام الطمأنينـة بـأن عديًّـا سَـيَنال قسـطه مـن العدالـة.

هاني: أيأذن الملك لي بالسـفر؟

النعـمان: لم لا تقيـم في ضيافتنـا إلى أن تسـتريح مـن وعثـاء السـفر وتتنـاول قليـلًا مـن الـزاد تسـد بـه الرمـق؟

هاني: لا بد من سفري مستعجلًا.

فصاح النعمان بالحاجب أن يقدموا خيول ابن مسعود، ووقف ومشي معه إلى الباب مودعًا، ثم عاد وجلس وهو يتأفف وكأنه شعر بصعوبة موقفه.

فقالت المتجردة: كنت أود ألا تردّ طلب ابن مسعود وخصوصًا لأنه على حق. وقالت سعاد: إني أشعر يا سيدي وأخي أن مسألة عدي ستوقعنا في مشكلة. أما الحرقة فترقرق الدمع على وجنتيها الورديتين وشعرت بأنها لا تستطيع أن تعبر عما يخالج ضميرها من المخاوف فتركت عينيها تتكلمان عنها.

عدي بن أوس

أنبأ الحاجب بقدوم عدي بن أوس، فنظر النعمان إلى المتجردة مستفهمًا إذا كانت ترغب في السماح له بالدخول.

أما هي فوقفت بسرعة وقالت: ما عدت أطيق سماع اسم هذا الرجل، ويخيّل إليّ أن صفو عيشنا بدأ يتعكر منذ صرنا نعتبره صديقًا ونركن إليه. ومشت نحو ديوانها الخاص فتبعتها سعاد والحرقة.

فدخل النعمان ابن أوس، وإذا علامات الاضطراب بادية على وجهه، وقال متظاهرًا بالاهتمام: إن أحد مرازبة كسرى في الحيرة.

النعمان: ومتى كان قدومه؟

ابن أوس: منذ ساعة.

- أين هو ولماذا لم يأتِ إلينا؟!

- ذهب توًّا إلى السجن.

- توًّا إلى السجن؟ ولماذا؟

- ليرى عديًا.

- ولماذا لا يأتي ليرانا ونحن أصحاب الأمر في الحيرة؟

- إنَّ عديًـا بعـد أن كتـب إليـك كتابيْـه ولم تجبـه عليهـما، كتـب إلى أخيـه الـذي يخلفـه عنـد كـسرى يقـول:

يحن إليك شـقيق الفؤا

د يـكاد لبعدك أن يخترم

لـدى ملك موثق بالحديد

إما لحق وإما لظلم

فـلا تُلفينّ كثير الرقاد

بـل احزم برأيك لي واعتزم

فلـما وصـل هـذا الكتـاب إلى أخ عـدي دخـل إلى كـسرى وأخـبره بمـا كان مـن أمـرك مـع عـدي. فغضـب كـسرى وأرسـل مرزبانـه إليـك، ولعـل المرزبـان ذهـب تـوًا إلى عـدي ليعلمـه بقدومـه وينـال حظـوة عنـده فيذكـره متـى عـاد إلى المدائـن بالخـير عنـد سـيده، فالمرزبـان يمتثـل بـلا شـك بـين يديـك بعـد أن يقـضي لبانتـه مـن زيـارة عـدي في سـجنه.

النعـمان: وكيف عرفت كل ذلك؟

- بثثـت العيـون حول ابن زيـد فعرفت جميع حركاته لأخبرك بها.

- إنـا نقـدّر لـك إخلاصـك يـا ابـن اوس، ومـا رأيـك في المرزبـان ومـاذا نجيـب كسرى؟

- أَتعمل برأيي أيها الملك؟ إن المسألة صارت في أدق أطوارها ولا يمكن تصريفها إلا بالحزم.

- قل ماذا ترى.

- أن ترسل من يقتل عديًّا في سجنه حالما يخرج المرزبان من عنده.

- وماذا نجيب كسرى؟

- المرزبان يخبره بأنه وجده قد مات حتف أنفه.

- أتظن أني أقدم على ارتكاب هذه الجناية الفظيعة وأسوّد صفحة تاريخي وأخون ديني وتقاليد أمتي الكريمة؟

- إن لم تفعل، وانطلق عدي إلى كسرى يفسد أمرك عليك، ولا تدري ما يصير إليه حالك وحال العرب إذا تولى أمرهم غيرك وكان ممن لا يرعى لهم ذمة ولا يهتم إلا للحظوة في عيني كسرى.

وكأن النعمان لقي لنفسه في هذا القول مبررًا فقال:

بالصواب تكلمت يا ابن أوس، فيجب ألا أدع شيئًا يحول بيني وبين خدمة قومي. وأمر باستدعاء رئيس الشرطة، فلما مثل بين يديه أمره أن يرسل ثلاثة أنفار أمناء طائعين مع عريف ليأخذوا نفس عدي في سجنه وأن يعملوا بإنفاذ الأمر حالًا.

فابتسم ابن اوس لنجاح دسيسته وحسب أنه انتقم لنفسه من خصمه ابن زيد وأزاحه من وجهه فخلا له الجو.

وهكـذا يظـن المفسـدون عندمـا تنجـح مكائدهـم، ولكنهـم لا يلبثـون أن يقعـوا في شر أعمالهـم فتضطـرب أفكارهـم وتتنبـه وساوسـهم وتكـثر مخاوفهـم فـلا يعـودون يجـدون في الحيـاة لـذة، وكثـيرًا مـا تنكشـف مفاسـدهم فيصـبّ أولـو الأمـر الذيـن انخدعـوا بهـم جـامَ غضبهـم عليهـم وينتقمـون منهـم شر نقمـة.

المرزبان

خـرج ابـن اوس مـن حـضرة النعـمان، فالتقـى بمرزبـان كـسرى في البـاب فهـرول إلى دار الشرطـة لـيرى إذا كانـوا أسرعـوا في تنفيـذ أمـر الملـك وقتلـوا عـدي بـن زيـد.

أمـا المرزبـان فدخـل عـلى النعـمان الـذي أكـرم وفادتـه واحتفـى بـه، وبعـد أن جلـس المرزبـان قليـلًا وسـأله النعـمان عـن حـال كـسرى دفـع إليـه المرزبـان كتـاب الملـك فقبلـه وفتحـه وقـرأ مـا يـلي:

«من ابرويز كسرى،

إلى النعمان ملك الحيرة سـلام،

أمـا بعـد، متـى وصـل إليـك كتـابي هـذا أطلـق ترجـماني عديًـا حـالًا ليعـود إليّ مـع المرزبـان».

فشـعر النعـمان بحـرج الموقـف وخـشي سـوء مغبـة عملـه وتذكـر طيـب عنـصر عـدي بـن زيـد فاسـتدعى أحـد حجابـه وأسر إليـه أن يـسرع إلى رئيـس الشرطـة ويبلغـه أمـره بـأن يـأتي بعـديّ إليـه مكرمًـا.

فـأسرع الحاجـب إلى دار الشرطـة وبلـغ الأمـر فتململ وقـال في نفسـه: مـا أكـثر تـردد الملـك في مسـألة ابـن زيـد ومـا أغـرب تناقـض أوامـره! مـاذا طـرأ عـلى النعـمان وعهدنـا بـه حازمًـا مـاضي العزيمـة، لا ريـب أنـه استسـلم إلى مشـورة الأشرار فصـاروا يلعبـون بـالإدارة والأحـكام. إن هـذه الحـال تنـذر

بالسـوء، وللحـال أرسـل شرطيًّـا إلى السـجن ليـأتي بعُـديّ قبـل أن يقتلـوه.

فوجـد الشرطـي عـدي بـن أوس في البـاب وعـرف أن الأمـر قـد قـضي، فعـاد هـو والعريـف الـذي عهـد إليـه بإتمـام المهمـة يحمـل في صـدره تـواصي ابـن زيـد الأخـيرة إلى النعـمان. فأرسـله رئيـس الشرطـة إلى الملـك ليبلغـه إياهـا مـن فمـه.

فاضطـرب النعـمان لمـا درى أن عديًّـا قُتـل، وقـال للمرزبـان: انطلـق أنـت إلى عـدي وأخرجـه مـن حبسـه عمـلًا بأمـر ملـك الملـوك كـسرى.

أقوال ابن زيد

وأمـر النعـمان فأدخلـوا عليـه العريـف الـذي عهـد إليـه بقتـل عـدي وسـأله: هـل أظهـر ابـن زيـد جبنًـا قبلـما قتلتمـوه؟ فأجابـه العريـف قائـلًا:

- بالعكس يا مولاي فقد كان مثال الشـجاعة والجرأة.

- ماذا قال لكم؟

- التفـت إلينـا وقـال: إني أشـفق عليكـم أيهـا الشرطـة والجنـود، فأنتـم آلات صـماء يسـتخدمها الملـوك وأولـو الأمـر تـارة للخـير وأخـرى للـشر. كثـيرًا مـا تكونـون بيـد الظالمـين القـوة الغاشـمة التـي تقتـل كلّ شـعور بالحـق وكل حركـة فكريـة طيبـة، يـا ليتكـم أنتـم ورؤسـاؤكم تسـتخدمون عقولكـم ولـو قليـلًا في درس الأوامـر التـي تلقـى عليكـم قبـل أن تنفذوهـا، فربمـا كنتـم تمنعـون شرورًا كبـيرة وتقوّمـون كثـيرًا مـن اعوجـاج الملـوك وأولي الأمـر. أمـا أنتـم كـما خلقكـم ربكـم أو الطبيعـة أحـرار لأنكـم تقتلـون جراثيـم الحريـة في نفوسـكم بالطاعـة العميـاء التـي لا تجـوز إلا للعقـلاء العادلـين الذيـن لا يأمـرون بغـير الخـير ولا يحكمـون بغـير الحـق ولـو عـلى نفوسـهم.

وقولـوا للنعـمان: حالمـا ينـصرف الملـك عـن الاهتـمام بشـؤون الملـك إلى الاهتـمام بشـؤونه الخاصـة فنظـام ملكـه يختـل ويضطـرب عرشـه ويصبـح هـو ريشـة تتلاعـب بهـا أهـواء أصحـاب الأغـراض، ولا يصـون الملـك ملكـه إلا بالاهتـمام بتقويـة دعائـم الملـك التـي هـي العـدل والاقتصـاد والمعـارف والجامعـة. فالنعـمان الـذي خلتـه عاقـلًا حكيـمًا يخـدم نفسـه

ويثبت ملكه بخدمة مصالح العرب أدار أذنيه إلى الوشاة، فصرفوه عن واجبه وتظاهروا بالغيرة عليه وعلى عرشه فاستخدموه لينتقم لهم من خصمهم وصديق العرب وصديقه وهذه بداية أفول نجمكم. فليحاول إصلاح ما فرط إن لم يكن قد فات الوقت.

قولوا للنعمان أن لا تفاوت بين الملك والصعلوك إلا فيما يفعله كل واحد منهما لخير أمته ووطنه. قولوا له إن المال والمقام والقوة إذا استخدمها صاحبها للشر فراعي الغنم خير منه، مَن لا يسوس الملك فالملك يخلعه فليحاذر من الفخاخ التي وقع فيها. أما أنا فقد سامحته على شرط أن يتوب ويكفّر عن سيئته ولا يحاول ستر جرائمه بارتكاب جرائم أخرى، وإني أقابل ربي مرتاح القلب وأرى أبواب السماء مفتوحة لي لأني خدمت أمتي ووطني بإخلاص لا تشوبه شائبة. تعالوا ونفذوا أمر مليككم فقد دنا أجلي. ربي بيديك أودعت روحي.

أثّرت هذه الأقوال في نفس النعمان، ودمعت عيناه حزنًا على عدي بن زيد وخوفًا من الورطة التي ألقى نفسه فيها، ولكنه تجلد وقال للعريف: اذهب وابعث إليّ برئيس الشرطة السابق والحالي حالًا. وقام ودخل إلى القصر وقصّ على أهل بيته كل ما حدث وقال إنه كان نتيجة دسائس عدي بن أوس وإصغائه إليها.

فقالت المتجردة: ما كان أحسن حالنا يوم كنا نبعد الدسائس عنا، وما أشقى الملوك والحكام الذين يضيعون أوقاتهم بالاشتغال بالجاسوسية وبالإصغاء إلى الجواسيس، فإن نفوسهم تصغر وأوقاتهم تضيع وقوات

الأمـة التـي بأيديهـم تسـتخدم في الدنايـا وأموالهـا تنفـق عـلى الباطـل. ليتـك يـا نعـمان تقبـض عـلى ابـن أوس وتقـوم بتفتيـش دقيـق يسـتأصل شـأفة الفسـاد الـذي صـار لـه أسـاس في قصرنـا قبـل أن يتأصـل فيسـتأصلنا ويـضر مصالـح البـلاد وأهلهـا ويضطرنـا إلى اقـتراف الجرائـم والآثـام وينتـزع السـعادة مـن قلوبنـا.

كاهن النعمان

قرع الحاجب الباب الخارجي وأعلن قدوم كاهن النعمان، فسُرَّتْ بذلك الحرقة وسعاد اللتان كانتا منقبضتين أشد الانقباض مما سمعناه، وقالت المتجردة: لله در هذا الرجل الذي يأتي دائمًا في أوقات الحاجة إلى تعاليمه ونصائحه. إني أتبرك بقدومه.

وقال النعمان: إني ارتاح كل الارتياح لإرشاداته، وقد كنت مزمعًا أن أرسل في طلبه لو لم يجِئ.

دخل الكاهن وكانت الحرقة قد وقفت تنتظره في الباب، وكان رجلًا طاعنًا في السن وقد ابيض شعر رأسه ولحيته المسترسلة إلى صدره فزاده الشيب هيبة ووقارًا، وكان طويل القامة سَمِح الوجه قليل الكلام رصينًا، يمشي الهُوَينى ويتعكز على عصا طبيعية، فألقى تحية سيده المسيح بقوله: سلام لهذا البيت.

مسكت الحرقة يده وقبلتها فشعر هو بدمعة سخينة، سقطت على يده. فنظر في وجه الفتاة فابتسمت عن نفس متألمة، فأخفى شعوره وتقدم وانحنى أمام الملك والملكة اللذين استقبلاه واقفيْن على الأقدام، ودنت سعاد برصانة وقبّلت يده، فجلس إلى مقعد كان يجلس عادة عليه والتفت إلى الملك وقال:

- لقد شبعت من أيامي وصرت أتمنى أن ألقى وجه ربي، ولكنني أتوسل إليه دائمًا أن يطيل بقاءك ويبارك أعمالك ويمد في أجلي لأرى نجاحها

لسعادة الشعب، وإني أرغب في أن أرى أمنيتك في جمع كلمة العرب محققة، وأسأل السيد المسيح أن يكلل مساعيك أيها الملك بالنجاح ويجعل هذا البيت واسطة خير لجميع قبائل العرب.

أجال الكاهن نظره في سامِعِيه، فرأى النساء مطرقات والعبرات تتساقط على خدوده.

أما الملك فنظر إليه وقال: لقد زلّت بنا القدم يا رجل، وحِدنا عن الخطة المثلى التي كنت تعرفها. وإني أشعر منذ الآن أن السعادة قد فارقت قلوبنا فكيف يمكننا أن نجعلها لغيرنا بعد الآن.

فقلق الكاهن لسماعه هذا الكلام من الملك خصوصًا، لأن صوت النعمان لم يكن ليخفي آلام نفسه، فنظر إلى النعمان نظر القلِق المستفسِر.

فاستطرد النعمان وقال: لست مِمّن يخاف من تَبِعة أعماله، وإنما أنا آسف لأني حدتُ عن الطريق الذي رسمته لنفسي، وأخشى ألا تسمح لي الظروف بإصلاح ما أفسدت وأن تتعدى تَبِعة عملي إلى غيري، لا أطيل عليك الكلام أيها الكاهن المحترم لأني أراك قلقت وتحب الوقوف على السرّ.

فأنا صار يتراءى لي أني تركت نفسي أنخدع وقتلت عدي بن زيد بِدسيسة.. ففكر في هذا الأمر لتمدّني برأيك ولتستغفر لي ربك، وأنا الآن ذاهب إلى الديوان الخارجي لأعطي بعض الأوامر ولأجيب كسرى على كتابه.

وقام النعمان ودخل إلى الديوان الخارجي.

رئيسا الشرطة

وكان رئيسا الشرطة بانتظاره، فالتفت إلى الأول منهما وقال له: لقد أسأتني يوم لم تمتثل لأوامري بالقبض على عدي بن زيد، أما اليوم فأنا أهنئك لجرأتك الأدبية التي جعلتك تعتذر عن طاعة الملك لتصغي إلى صوت الضمير. والتفت إلى الرئيس الثاني وقال له: أما أنت فقد قمت بالواجب عليك كما يفعل كل جندي. بقي عليّ الآن أن أخبركما أني أعدتكما إلى سيرتكما الأولى. والتفت إلى الرئيس الأول وقال له: أريد أن تستعمل حذق المستطلعين وقافة الأثر لاستطلاع خبر الأعرابي الذي جلب الكتاب، للقبض عليه والتوصل إلى كل ما يمكن أن تعرفه عن حقيقة الكتاب الذي كان سببًا في وقوعنا في هذا الخطأ الفادح، وإني أطلب الإسراع في القبض على عدي بن أوس وتسليمه إلى القضاء.

فالتفت الرئيس الأول إلى رفيقه الرئيس الثاني، وطلب إليه أن يصطحب من يعتمد عليهم من رجال الشرطة ويذهب بنفسه ليقبض على ابن اوس فامتثل.

أما هو فطلب أن يبدأ بالتحقيق من عند الملك فسأله عن كل ما يعرفه عن أوصاف الأعرابي التي تسهل معرفته، ثم عن اسم الحاجب الذي أدخل الأعرابي عليه، واستعلم مِن هذا أيضًا عما يعلم عن الأعرابي وأوصافه، واستدعى إليه أحد الممتازين بالاستطلاع وأحد قافّة الآثار، وناولهم هذه المعلومات فطلبوا أن يؤذن لهم مقابلة الملك للاستعلام منه عن بعض الأمور فأدخلوا عليه وسألوا الملك والحاجب

عـما لاحظـوه مـن العلامـات الفارقـة في ذلـك الأعـرابي وعـن كل مـا دار بينـه وبـين الملـك والحاجـب مـن الحديـث وعـن تطوراتـه أثنـاء الـكلام، وخرجـوا يُعلِمـون القافّـة لمعرفـة وُجهـة الأعـرابي والمسـتطلع لمعرفـة حقيقتـه.

المرزبان أيضًا

ما كاد الملك ينتهي من هؤلاء حتى أدخل عليه المرزبان فحيّا قائلًا:

- أبَيْتَ اللعن أيها الملك. إني وجدت عدي بن زيد مقتولًا في السجن وآثار شد الحبل ظاهرة عليه.

النعمان: ماذا تقول؟

- والله ما قتله أحد غيرك.

- خذ لك هذه الألف دينار وأخبر كسرى ما رأيت وقل له إنك وجدته قد مات حتف أنفه.

- مسكين عدي بن زيد، كم كنت أرغب في أن أجده حيًّا لأرده إلى ملك الملوك كسرى، فقد كانت الصداقة بيني وبينه متينة. سأخبر كسرى يا حضرة النعمان بما رأيت وبأنك آسِفٌ لموت عدي لأنك كنت تحبه أيضًا.

- إن عديًّا بحسن أخلاقه اكتسب محبة الجميع، وموته لا يؤسف العرب فقط، بل كل مَن عرف حقيقته من أبناء الفرس يتأسف لفقده، فقد كان أمينًا لكسرى شديد الإخلاص لأمته. وهنا تذكر النعمان توصية عدي (لا تحاول ستر جرمك بارتكاب جريمة أخرى)، وأجفل.

أما المرزبان الذي كان مسرورًا بما قبضه، والذي كان يترنح من تأثير الشراب فلم يلاحظ أحوال النعمان النفسية فأجاب: عفوًا أيها الملك،

إن ابـن زيـد كان رجـلًا عربيًّـا طيّبًـا، ولكنـه مـات، فَلْيَعِـش الملـك.

فابتسـم النعـمان ابتسـامة ممزوجـة بمـرارة وقـال للمرزبـان: أنـت ضيفنـا الليلـة. فأجابـه هـذا قائـلًا: كلا أيهـا الملـك إني مسـتعد للسـفر، وقـد أتيـت لأسـتودعك اللـه وآخـذ كتابـك إلى كـسرى الـذي أؤكـد لـك رضـاه.

فنهـض الملك وتقدم المرزبان وودّعه وانصرف.

القضاء

بعد مرور ساعة على صدور الأمر بإلقاء القبض على عدي بن أوس، دُعِي ليقف أمام القضاء وكان الملك حاضرًا فقال للقاضي:

يجب أن تدققوا في أمر هذا الكتاب المرسل لنا، فإني أرتاب بصحته وأعتقد أن عدي بن أوس زَوّره ليتّهم عدي بن زيد، ولما رأى أن حيلته قد نجحت أشار عليّ بقتله، ولما أصدرت أوامري بذلك ذهب بنفسه ليعجل تنفيذ الأمر ويمكنكم أن تستعلموا من الشرطة عن تصرفه وتستعينوا بمعلومات المستطلعين والقافّة التي سيقدّمها لكم رئيس الشرطة. فَوَجّه القاضي الكلام إلى ابن أوس وقال:

- ماذا تقول يا بن اوس في شكاية الملك عليك؟

- إن الملك أطلعني على كتاب كان بيده. فتناول القاضي الكتاب وأطلع عديًّا عليه وسأله إذا كان هو المقصود.

- نعم أيها القاضي.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- أطلعت النعمان على معلوماتي عن علاقات ابن زيد بإياس ابن قبيصة.

- تريد أن تقول إنك اجتهدت لتحمل الملك على الاشتباه في إخلاص ابن زيد لتجعله يوقن بأن ابن زيد هو كاتب الكتاب؟

- بما أن الملك وضع ثقته بي شعرت أن الواجب يقضي ألا أكتم عنه شيئًا مما أعلم.

- أَلَم تكُن تعلم أن ابن زيد عربي كريم وبعيد عن الوشاية بالعرب؟ فضلًا عن كونه لا يخون كسرى لأنه أمينه. وما كان أوْلى بك أن تنبّه النعمان إلى كون ابن زيد يقدم مصلحة العرب على كل شيء آخر، ويعلم أن الملك خيرُ من يخدمها في العراق، وهو أولى الناس بثقة كسرى وأقدرهم على التوفيق بين الفرس والعرب، ولذلك هو سعى لدى كسرى بتوليته أمر العراق. أَما اعتقدتَ أنك لو قلت شيئًا من هذا لكنت نبهت شعور النعمان ليتروّى في الأمر؟

- نعم ولكن وجدتُ في يد الملك كتابًا دفعه إليه أعرابي وقال إن ابن زيد استأجره ليوصله إلى كسرى، وقد وجدت خطه يشبه خط ابن زيد فاشتبهت.

- حسنًا تقول، ولكن أَما كان يجب أن يخطر لك أن ابن زيد رجل حنّكته التجارب؟ وإذا أراد أن يكتب شيئًا مثل هذا إلى كسرى فإنه يرسله مع مَن يثق بأمانته لا مَن يحمل كتبه إلى أناس آخرين.

- وإذا أراد الله كشف أمر هَيّأ الأسباب لذلك.

- بالصواب أجبت. وكيف أشرت على النعمان بقتل عدي قبل التحقيق والثبوت؟ أما دَرَيْت أن الكتاب لو صحَّ أنّ عديًّا كاتبه، فكتابته لا تعد جريمة لأنه أمين كسرى.

- السياسة غير القضاء يا حضرة القاضي.

- أخشى أن تكون السياسة التي تعنيها هي ما يلائم مصلحتك.

- بل مصلحة الملك والأمة.

- عسى أن يكون في وسعك أن تبرهن لنا أن هذه هي مقاصدك الحقيقية.

ثم أمر القاضي بنقل ابن أوس إلى غرفة أخرى، واستدعى إليه رئيس الشرطة وقافة الأثر والمستطلع، وتفاوض معهم مليًّا، ووقف على جميع معلوماتهم وسألهم عدة أسئلة، ثم أمر بتنظيم خلاصة مختصرة من تقريرهم، ففعلوا، ثم استدعى القاضي ابن اوس ثانية وعقد ديوان المحاكمة وقال له:

- أصغِ إلى خلاصة تقرير قافّة الأثر والمستطلع وانظر كيف تدافع عن نفسك.

فشرع رئيس الشرطة بقراءة التقرير الآتي:

استعلمنا من الملك والحاجب عن أوصاف الأعرابي، واقتفينا أثره، وبالسؤال المستمرّ وجدنا من كان لا يزال يذكر مروره، ثم اهتدينا إلى رجل عرف منزله فقصدناه، فوجدنا امرأته فسألناها فأنكرت بادئ ذي بدء أنها تعرف عنه أو منه شيئًا، ثم اعترفت لنا أنه من رجال ابن أوس واسمه حماد العبادي، وأنه قبل سفره نقدها خمسة دنانير من عشرين دينارًا أعطاه إياها ابن أوس لأنه استخدمه في قضاء حاجة،

وأوصاها ألا تذكر شيئًا من ذلك لأحد، وغادر الحيرة إلى حيث لا تعلم منذ بضعة أيام.

فسأل القاضي ابن أوس هل يعرف الرجل.

فتوقف ابن أوس قليلًا ثم اعترف بأنه يعرفه، فسُئِل عما أعطاه من الدراهم ولماذا أعطاه إياها، فأنكر ذلك بتاتًا، ثم استدعى القاضي الهيئة التي عهد إليها بفحص الكتاب المعنوَن إلى كسرى والمُسَلَّم إلى النعمان، وسألهم عما وجدوه فأطلعوه على كتب مكتوبة بخط عدي بن زيد، وقابلوها بالكتاب وأظهروا للقاضي بعض فروقات دقيقة بين الخطين، وحكموا بأن كاتب الكتاب حاول تقليد خط ابن زيد وأنه ماهر جدًّا في تقليد الخطوط، حتى أن الرجل العادي لا ينتبه إلى الفروقات، فاضطرب عدي بن أوس لأنه كان معروفًا في الحيرة بإحكامه تقليد الخطوط.

وكان القاضي وهو يسمع أقوال الخبراء يرمق ابن أوس من وقت إلى آخر بنظرة خفية، فلما شعر باضطرابه سأله قائلًا:

- أتسمع يا بن أوس أن الكتاب المسلَّم إلى النعمان مقلَّد فيه خط عدي بن زيد؟

- وأي دخل لي بذلك؟

- ألستَ أنت الذي أشرت على النعمان بقتل ابن زيد غيلة أن السياسة غير القضاء؟

- أيها القاضي، فلو بقي ابن زيد حيًّا ورجع إلى كسرى فإنه لا يبقي على مُلك النعمان ويقع الشقاق بين العرب وتضطرب أمورهم.

- ما دمتَ مشهورًا بتقليد الخطوط أما كان يجب عليك أن تدقق في خط الكتاب لتكون مشورتك للنعمان سليمة؟

- إن حرج الموقف السياسي أشغلني عن الاهتمام بذلك.

- بما أنك من الخطاطين فمن البديهي أن تلتفت قبل كل شيء إلى فحص الخط، ولكن دعواك بأن الموقف السياسي ألهاك فهو مما يوقع الشبهة عليك، وعبثًا تحاول استكتابك لأنك تستطيع أن تتلاعب بخطك كيف شئت، فالآن أُنَبِّه فيك كل بقية باقية من العاطفة العربية الشريفة أن تجلو ما بقي من الغموض عن هذه المأساة بعد ظهور هذه القرائن التي تدلّ على أنك مزور الكتاب ومرسله إلى النعمان ومشير عليه بقتل عدي. وأَرغب إليك أن تموت كعربي شريف لا كنذل جبان، فاعترف بالحقيقة.

فاضطرب ابن أوس لهذه الكلمات الأخيرة وقال:

- إني عدو لابن زيد وأنا الذي كدت له هذه المكيدة وزوّرت الكتاب وأرسلته مع الأعرابي وأشرت على النعمان بقتل خصمي لأنتقم منه، فأنا سبب كل هذا الشر، أنا يهوذا الإسخريوطي الذي سلّم سيّده للموت، أنا خائن النعمان الذي وثق بي، أنا خنت الشريف ابن زيد، أنا خنت تقاليد العرب، أنا خنت وطني فاقتلوني لأني ما عدت أطيق أن أرى

الشمس والبشر. اقتلوني لعلّ الله يغفر لي ذنوبي إذا جوزيتُ عليها في هذه الدنيا ويُنيلني الآخرة.

- حكمتُ عليك بالإعدام بإقرارك، وسنعدمِكُ بعد تصديق الحكم من قبل الملك إعدامَ القاتل الشريف المعترف بذنبه، فَتُبْ إلى ربك.

وبعد سكوت قليل مِلْؤُه الوقار سأل القاضي بصوت خاشع إذا كان يريد كاهنًا ليوصي على يده وليسترشد منه في ساعته الأخيرة الرهيبة. فأجابه ابن أوس بالقبول.

فقال عندئذ القاضي لرئيس الشرطة:

- دع جنودك يسوقون هذا الرجل إلى السجن، وليعاملوه بالرفق والاحترام إلى حين تنفيذ الحكم، وأذكر القول المأثور «الجميع زاغوا وفسدوا ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد»، ولا تنسَ أن خطايانا قد تكون أعظم من خطاياه ولكن بهذا قضت مشيئة الخالق العظيم.

المشورة

ورد الحكم على النعمان فصادق عليه لساعته، ولكنّ يده ارتجفت عند التوقيع لأنه شعر بمشاركته لابن أوس في الجناية، فقال في نفسه: كم في المناصب مثلي أيديهم ملطخة بدماء الأبرياء ومع ذلك فهم يوقّعون على معاقبة المجرمين وينسون أنفسهم؟! لو كنت عربيًّا شريفًا ومسيحيًّا حقيقيًّا لحكمت على نفسي قبل تصديق الحكم على ابن أوس.

عقد الملك مجلس شورى عائليًّا مؤلفًا منه ومن عقيلته المتجردة وشقيقته سعاد وابنته الحرقة وكاهنه، وكان هذا المجلس من جهة عبارة عن اعتراف النعمان للكاهن ليستغفر له الله عن ذنوبه على حسب العوائد المسيحية، ومن أخرى عبارة عن مبادلة أفكار بين جميع أفراد العائلة والكاهن الصالح الذي كان بمثابة أب لها فيما يجب عمله لإزالة تأثير هذا الحادث المؤلم وإلقاء ما قد يجلب من الضرر.

فتقرر بأن يسعى النعمان باسترضاء أبناء زيد الذين كانوا قد رحلوا ليثأروا لأنفسهم حسب عوائد العرب المألوفة، وأن يعتذر النعمان لهاني بن مسعود ويظهر استعداده لقبول أي حكم يصدره القضاة

عـلى أصـول العشـائر وأن يـدرس مـا يعـرض مـن مثـل هـذه الحـوادث في المسـتقبل درسًـا بعيـدًا عـن الغـرض أو تأثـيرات القـوة، وأن تراعـى عوائـد القـوم وتقاليدهـم في كل الأعـمال، وكأن هـذا البيـت الأصيـل الطيـب لم يكـن حاسـبًا لمـا تخبئـه لـه الأقـدار، فلـم يحتـط لمـا قـد يأتيـه عـن طريـق ابـن عـدي الـذي آلى عـلى نفسـه أن ينتقـم لـدم أبيـه.

باب كسرى

عاد المرزبان وأخبر كسرى بأنه وجد عدي بن زيد قد مات حتف أنفه، ولما سأله أين شقيق عدي وزيد ابنه، قال له ما قاله لكسرى فكظم غيظه ولم يتفوّه ببنت شفة، ولكنّ زيدًا أضمر السوء لكسرى وللنعمان على السواء، لأنه رأى أن كسرى بعدما علم أن عديًّا قد مات لم يهتم بأمره فقال في نفسه: إن بعض الملوك وأرباب السياسة لا يهتمون إلا بمن ينفعهم. فإذا انقضى نفعه أهملوا أمره. قوتلت السياسة، تقضي بالتجرد من العواطف واعتبار الناس آلات لقضاء المآرب، فإذا اختلت الآلة وبطل نفعها ألقوا بها في زوايا الإهمال. وذمة العرب لأجعلن النعمان وكسرى وقودًا لنار نقمتي وأُعلم الناس كيف ينتقمون ممن لا يقدر الحَسَنة ولا يرعى الذمام، وأُعلم الساسة أن يحترموا المخلصين والأمناء وألا يستهينوا بالضعيف وأن يجدوا العدل بين الناس.

كظم زيد غيظه وتظاهر بالامتنان من كسرى لأنه اهتم وأرسل المرزبان في طلب أبيه من النعمان، فقرَّبه كسرى وعمَّه أُبيًّا منه وأحلّهما محلَّ عدي لأنه كان يحتاج إليهما ويثق بإخلاصهما. أما هما فاتخذا طريقة التزلف له سياسةً، وقال زيد لعمه أُبيّ بعدما بلغهما حقيقة خبر مقتل عدي: يجب يا عماه أن نعتبر ما حلّ بوالدي الذي لم يعرف غير الإخلاص لكسرى والتفاني في خدمة النعمان، لأنه كان يعتقد أنه يخدم العرب بخدمة مليكهم. ليس في القصور للإخلاص قيمة ولا ينال الحظوة فيها إلا المتملّقون. فالذين كأبي عدي يجب أن يبقوا بعيدين عنها لأن إخلاصهم يجلب عليهم الوبال. أَلَيْس الملوك وكبار الساسة

مـن طينـة البـشر الذيـن يفرحـون بالتيجـان والعـروش والمراتـب العاليـة والرتـب والمراسـيم؟ ومَـن كان هـذا شـأنه فـلا يعجبـه مـن النـاس سـوى الإطـراء والتعليـق ولـو كان في ذلـك هلاكـه. أمـا الحقائـق ولا سـيما الجارحـة منهـا فإنـه يصـمّ أذنيـه عنهـا ويصـبّ جـام غضبـه عـلى قائليهـا ولـو كان فيهـا كلّ الخـير لـه. فنحـن سـنبقى نتزلـف مـن كـسرى إلى ونتملقـه حتـى يضـع كل ثقتـه فينـا، ومتـى سـنحت لنـا فرصـة الانتقـام غنمناهـا واعتزلنـا. فأصغـى أُبيّ إلى كلام زيـد ابـن أخيـه وهـو بـين عاملـيْن، عامـل الأخـذ بثـأر أخيـه وعامـل الرغبـة في خدمـة أمتـه، وكان يشـفق عـلى الغـلام الـذي كان صـدره يتلظّـى حقـدًا عـلى قاتـل أبيـه وعـلى مـن نـسي خدماتـه الجليلـة لـه حالمـا بلغـه خـبر موتـه.

الحرقة

وقعت حادثة القبض على عدي وقتله على الحرقة وقوع الصاعقة، لأنها من حين رجوع هاني خائبًا من عند النعمان شعرت كأن صرح أمانيها وسعادتها قد انهدم، فقد كانت مخطوبة لهلال شقيق هاني وهو فارس شديد المراس رقيق الخلق كريم الأخلاق حسن الضيافة، نال شهرة تكاد تقرب من شهرة أخيه وهو لا يزال في سن العشرين. فأحبته الحرقة حبًّا شديدًا وكانت تمارس ركوب الخيل والفروسية لترافقه في ميادين القتال، فبرعت فيها حتى صارت تجاري أشد الفرسان مراسًا. فلما لم يجب والدها طلب هاني إلى فَكِّ عقال عدي خشية أن يؤدي ذلك إلى النفور والخصام بين اللخميين وبني شيبان، ولما قتل عديًّا ازداد قلقها، غير أنها اطمأنت قليلًا لنتيجة المؤتمر العائلي، ولكن هذا الاطمئنان لم يدم طويلًا لأنها شعرت بانقباض داخلي وكأنها كانت تتوقع شرًّا مستطيرًا في كل دقيقة، فتولّاها القلق والخوف وما عادت تستقرّ على حال، ولم تكن تستطيع الإفصاح عما بها، ولم يعد يخطر لها ببال غير اتحاد القبائل وتضامنها وإقامة مجلس شورى يفصل في خلافاتها ويدير شؤونها ويسيّر سفينة أمورها في سبيل الصلاح، وكأن أفراح قصر النعمان تبدّلت بعد مقتل عدي وصارت المتجردة تميل إلى العزلة والتفكير. أما سعاد فلازمت شقيقها النعمان وأحست بما كان يجول بخاطره من جهة مقامه عند كسرى وبين العشائر. وحقًّا إنه شعر أن مركزه تزلزل بعد أن أقام كسرى أُبيًّا شقيق عدي وابنَه زيدًا في بابه بدلًا من عدي، وأن منزلته لم تعد كما كانت عند العشائر

لمخالفته التقاليد العربية وعدم إصغائه إلى ما عرضه عليه هاني بن مسعود. أحست سعاد بذلك وكانت تتوسل بجميع الطرق لتهوّن الأمر على النعمان وتساعده في التغلب على هذه الصدمة التي ما كانت لتؤثر على نفسه لو لم يكن رقيق الشعور طيب القلب، وقد كانت سعاد تجتهد اجتهادًا مستمرًا لتجد بابًا إذا ولجه النعمان يجلب منافع عظيمة للعرب فيكفر عن سيئته وينسى أضرارها في جانب المنافع العظيمة التي تعيده إلى سيرته الأولى. فكتبت إلى هاني بن مسعود تسأله أن يشترك مع النعمان في العمل لتوحيد كلمة العشائر والعمل لإزالة العراقيل التي تعترض، وطلبت إليه ألا يدع عدم قبول النعمان وساطته في مسألة عدي تعيقه عن القيام بعمل عظيم وهو بطل العرب في ذلك الزمن، وأبانت له أن النعمان على استعداد للقيام بكل ما يقضي به الواجب ويفرضه الحق نحو التقاليد القومية ونحو بني زيد الذين أُسيءَ إليهم.

فَسُرَّ ابن مسعود بكتاب سعاد سرورًا عظيمًا وعده فاتحة خير عظيم لقومه، وعَوّل على استشارة رؤساء قبائل ربيعة في الأمر ليباشروا برأي متفق عليه هذا العمل الخطير ويضعوا له منهاجًا صحيحًا.

زيد بن عدي

هـذا مـا كان يجـول في خواطـر أعضـاء أسرة الملـك العـربي اللخمـي النعـمان بـن المنـذر، أمـا زيـد بـن عـدي فكانـت عوامـل الانتقـام تتقـوى في نفسـه مـن يـوم إلى آخـر ولا غـرو فالضعيـف إذا خُيّـلَ إليـه أن ضمائـر الأقويـاء صـماء لا تصغـي ولا تتأثـر للحـق فإنـه يسـتغرق في اليـأس ويـزداد ميلـه إلى الانتقـام بشـدة ويجيـز لنفسـه ارتـكاب كل عمـل يـبرد غليـل حقـده.

كان حـب الانتقـام قـد تمكـن مـن نفـس زيـد التـي لم تجـد لهـا معزيًّـا، والتـي زادهـا ألمًـا عـدم تأثـر قلـب كـسرى أو قلـب أحـد مـن رجـال إيوانـه لمصـاب عـدي الـذي كان أعاظـم الفـرس يظهـرون لـه الإخـلاص والـولاء نظـرًا لمـا شـهدوه مـن عطـف كـسرى عليـه يـوم كان حيًّـا. فصـار زيـد يبالـغ في التقـرب مـن كـسرى والعمـل لمرضاتـه عـلى نفقـة قومـه العـرب، وصـار يـشي بهـم ويثـير الغـيرة بـين رؤسـاء القبائـل ويحرّضهـم عـلى بعضهـم وينقـل جميـع أخبارهـم إلى كـسرى حتـى خُيِّـل لهـذا أن عديًّـا، والـد زيـد كان يخدعـه بتقاريـره الطيّبـة عـن العـرب، فقـرّب زيـدًا منـه وصـار يغـدق عليـه الألقـاب والنعـم حتـى شـخصت إليـه الأبصـار وصـار العظـماء يتقربـون منـه ويترحمـون أمامـه عـلى أبيـه، ويعـدّدون لـه حسـناته عليهـم ويذكـرون مـا كان بينـه وبينهـم مـن الإخـلاص، وكان زيـد يتقبّـل منهـم ذلـك في الظاهـر ولكنـه يحتقـر في داخلـه رياءهـم ودنـاءة نفوسـهم.

في ذات يـوم اسـتدعى كـسرى أحـد خصيانـه وأمـره أن يطـوف في جميـع أنحـاء المملكـة عـلى حسـب العـادة في كل سـنة ويختـار لـه جاريتـين أو

ثلاثًا من ربات الجمال ويأتي بهن إليه.

فأخبر الخصي زيدًا مهمته، فدخل زيد على كسرى وقال له: إني أدلّ سيدي على جاريتين لا يوجد مثلهما عند الفرس والعرب. فأبرقت أسرة كسرى وسأل زيدًا عنها، فقال: هما سعاد شقيقة النعمان وابنته الحرقة فجمالهما يفوق الوصف.

فقال كسرى: لمَ لمْ يخبرنا أبوك عنها؟ فأجاب: لست أعلم ولكنني أعلم أن الخصي لو طاف العالم كله لا يجد خيرًا منها.

فقال كسرى: لنرسل إذن الخصي إلى النعمان. فأجاب زيد: وإذا أمرتني ذهبت كترجمان لأترجم بينه وبين النعمان.

فقال كسرى: بارك الله فيك يا زيد، فإنك تخلصنا الخدمة والنصيحة أكثر من أبيك على رغم ما كان عليه من الإخلاص الشديد.

فأطرق وقال في نفسه: إنكم لا تعرفون غير الساعة التي أنتم فيها، ولا تشكرون إلا من يشبع شهواتكم الدنيئة ولو أنه خرّب ممالككم. لقد وقعت أنت والنعمان في الشرك فسأنتقم لوالدي منكما.

وتقدم زيد وقبّل يد كسرى فوعده بالمكافأة إذا كانت سعاد والحرقة كما وصفهما، وكتب كسرى كتابًا إلى النعمان وسلّمه إلى الخصي فسافر هذا وزيد إلى الحيرة.

بيت النعمان

أُدخِلَ الخصي وزيد بن عدي على النعمان فأحسن استقبالهما، وأمر لهما بشراب ثم سألهما عن حاجتهما فدفعا إليه كتاب كسرى وما إن وقع نظره عليه حتى اضطرب وغضب ولكنه كظم غيظه.

فالتفت الخصي وسأل: متى تجهز لنا البنات؟

فقال النعمان لزيد الذي كان يترجم: قل للخصي أني أتشرف بمصاهرة كسرى وأرغب في تمكين الصلات بين الفرس والعرب لأننا أمتان شرقيتان متجاورتان، ومصالحنا تقضي بتضحية كل شيء في سبيل اتفاقنا، ولكني عربي ومسيحي ولي تقاليد قومية ودينية ولا يمكنني العمل إلا بمقتضاها، فلو كان كسرى يطلب الاقتران بواحدة من بناتي ولم تكن مرتبطة بأحد لما ترددت في إجابة طلبه..

فحرف زيد الترجمة وقال له: إن النعمان يقول إن العرب لا يختلطون بالأعاجم، فقولوا لكسرى: لا يوجد عندي بنات أقدمهن له.

فقام الخصي وزيد وانصرفا من دون أن يأخذا من النعمان جوابًا على كتاب كسرى له، وعادا إلى المدائن وأخبرا كسرى بما كان وما لم يكن. فقال له زيد بن عدي: إن هذا العبد إذا جلس على سريره ووضع التاج على رأسه ودعا بشرابه وندمائه لا يعود يظن أنّ لكَ يدًا عليه. أما الخصي فقال: إن الكلب الذي بعثت بنا إليه قد سَمِنَ فتعدى طوره.

فأوغـرا قلـب كـسرى عـلى النعـمان، واستشـاط ودعـا إيـاس بـن قبيصـة الطـائي وأقامـه عـلى أربعـة آلاف فـارس مـن بنـي طـيّ وهـراء وعبّـاد وإيـاد، وولّاه مـكان النعـمان وأمـره أن يتأهـب ليسـير إلى الحـيرة ليقبـض عـلى النعـمان ويبعـث بـه إليـه مصفـدًا بالحديـد.

أُبَيّ وزيد

فلما درى أُبَيّ شقيق عدي وعم زيد بما كان منه غضب ودعا إليه زيد وسأله عما فعل، فقصّ عليه كل ما جرى وقال: الآن أنتقم لأبي من كسرى ومن النعمان معًا. فقال أُبيّ: أخطأت يا ابن اخي خطأً عظيمًا لأنك أوقعت البلاد في شرٍّ مستطير، إني أعوذ بالله من كيد الملوك. أنت لم تدرِ أن النعمان ثابَ إلى رشده وندم عما فعل، وقد كتب إلى هاني بن مسعود يعترف بذنبه ويوسطه بالصلح ويعلن استعداده لقبول حكم أيّ قاضٍ نختاره نحن وهاني، وإن كسرى قد أحسن إلينا وكافأنا وإن كان لم ينتقم لدم أبيك فالحق في ذلك على المرزبان الذي خدعه لا عليه.

زيد: وما نفعي من الصلح مع النعمان بعد أن قتل والدي؟ وهل لي غرض بإيوان كسرى حتى أبقى فيه على ما أنا عليه من الذل أتلقى الأوامر وأعمل بها وأنا لا أتوخّى شرفًا ولا جاهًا من خدمة الملوك؟ وما هي قيمة هذا الجاه الذي تبقى معه النفس ذليلة ومجردة عن كل حق وحرية ومستعدة دائمًا للعمل بإرادة وأوامر غيرها طيّبة كانت أم رديئة، عادلة أم مجحفة؟

- أُبَيّ، أنت لست أكبر نفسًا من أبيك.

- كان أبي كبيرَ القلب ولكنه كان راسمًا لنفسه خطة خدمة أمته وتوحيد كلمتها وتحويل علاقاتها بالفرس من علاقات عبودية إلى علاقة إخاء

بـين الشـقيقتين الجارتـين. فـكان يتحمـل كل شيء في سـبيل تلـك الخطـة ويلقـى لـذة في كل حركـة يقـوم بهـا ويظـن أنهـا تسـاعد عـلى بلـوغ الأمـاني.

- فلـماذا لا تكون هذه خطتك أيضًا؟

- أتظـن أني أسـتطيع أن أصـبر عـلى خدمـة أمتـي عـلى يـد قتلـة أبي؟ لقـد كشـف لنـا النعـمان عـن حقيقتـه بقتلـه والـدي. واللـه لـو أخـذه بجريمـة حقيقيـة يـا عـمّاه لقلـت إنـه حـقٌّ للنعـمان أن يقتلـه مـن أجـل مصلحـة الأمـة، ولَـمَا حقـدت ولا فكـرت بالانتقـام، ولـو أن كـسرى اسـتدعاك وأخـبرك بمـا قالـه لـه المرزبـان بعـد عودتـه مـن لـدن النعـمان وسـألك رأيـك أو سـألني أنـا عـن سـبب مـوت والـدي بعدمـا قدمـت المدائـن لحسـن اعتقـادي بـه، ولكننـي عندمـا أفكـر بالنعـمان الـذي قتـل مـن كان السـبب في توليتـه أمـر الحـيرة ومـن بقـي يدفـع عنـه وشـايات خصومـه إلى أن ألقـاه في السـجن وقتلـه، وعندمـا أتأمـل كيـف نـسي كـسرى حـالًا الخدمـات الجليلـة التـي قدمهـا والـدي لعرشـه، يتبـادر إلى ذهنـي بـأن كثيريـن مـن الملـوك يعتقـدون أن النـاس خلقـوا لأجلهـم ليسـتخدموهم في مصالحهـم فقـط، فلهـم الحـقّ أن يتصرّفـوا بهـم تـصرف المالـك بملكـه، وليـس للنـاس غـير الـرضى وتقديـم فـروض العبوديـة. وعندمـا أفكـر في ذلـك يقـف شـعري ويقشـعر بـدني وتتمثـل العـروش أمامـي بحقيقتهـا. نعـم عندمـا أفكـر في ذلـك يُخيَّـل إليّ أن مثـل هـؤلاء الرجـال يحوّلـون العـروش إلى مراتـب ظلـم ويرتقونهـا ليقتلـوا عواطـف النـاس ويطعنـوا الحريـة بسـلاح الظلـم، وأرى العظـماء الذيـن يحفـون بمثـل هـذه العـروش والجالسـين عليهـا يحملـون الرتـب والألقـاب الكبـيرة عـلى قلـوب صغـيرة، كأنهـم رضـوا مـن أجـل

هـذه المظاهـر الكاذبـة أن يسـتعبدوا نفوسـهم ويتقيّـدوا بـإرادة أسـيادهم ويخنقـوا كل شـعور بالحريـة يخالـج ضمائرهـم، ويشـتغلوا بالدسـائس ضـد بعضهـم وضـد الشـعوب المظلومـة بهـم لينالـوا حظـوة ويـزدادوا قربًـا وعبوديـة، فكأنهـم كـما قـال المسـيح: قبـور مبنيـة مـن الخـارج بالمرمـر الجميـل ومـن الداخـل جيـف منتنـة.

أعلـم يـا عـماه أن والـدي وأخـاك لـو علـم أن هـذا هـو مبلـغ كـسرى والنعـمان مـن التقديـر والمعرفـة لمـا صـبر سـاعة عـلى ذلـة القصـور التـي يظنهـا النـاس عظيمـة. أريـد أن أضيـع حيـاتي في الخيـال والآمـال الوهميـة..

إن العـروش تحتـاج إلى رجـال ذوي نفـوس أعظـم مـن العـروش لتجلـس عليهـا، وإلى حاشـيةٍ قلـب كل رجـل منهـا عـرش الفضيلـة والشّـمم والحلـم والحـق، فحينئـذ تطيـب للمخلصـين خدمـة الملـوك، ليـس الملـك مـن يجلـس عـلى العـرش ويلبـس التـاج ويسـتجمع حولـه كل مظاهـر الأُبَّهـة والعظمـة، بـل الملـك الحقيـق مـن يجعـل لـه في قلـب كل امـرئ عرشًـا حقيقيًّـا.

عـرب نحـن يـا عـماه فـلا يجـب أن نتحـوّل عـما تعوّدنـاه مـن البسـاطة في كل شيء، ولا عـن طلـب الحقائـق المجـردة الملموسـة. هـل كان للمسـيح الـذي اعتنـق أسـلافنا دينـه وصرنـا نعبـده عـرشٌ كعـرش قيـصر وكـسرى؟ فلـماذا نعبـده ونحترمـه أكـثر منـه؟ إن التحـول عـن البسـاطة سـواء في المـادة أو المعنـى يوقعنـا في عبوديـة التقليـد والمظاهـر التـي سـتقضي عـلى الرومـان والفـرس، فلنحـاذر ولنحتفـظ بعاداتنـا وتقاليدنـا. لبـس عبـاءة ورعـي رعيـة مـع حريـة العقـل والفكـر والجسـم خـير مـن عيشـتي في

هـذا الإيـوان الـذي كلـه دهـان وكـذب وطـلاء وتمليـق ورياء فـما عيشـتي فيـه إن لم يكـن لي غايـة أسـعى إليهـا إلا عيشـة عـذاب مسـتمر، أمـا وقـد قضيـت لبانتـي فسأسـكن البـزاري بعيـدًا عـن فـوضى المسـابقة في طلـب المجـد الـكاذب. أنـا لسـت ممـن يبنـي قصـورًا في الهـواء. سـأتفرج عـلى آخـرة يـد النعـمان الكافـر بالجميـل الأثيمـة التـي تقتـل الأبريـاء، وعـلى كـسرى الـذي يقـذف بملكـه إلى جحيـم الحـرب مـن أجـل شـهواته.. ابـقَ أنـت هنـا ومثِّـل الـدور الـذي تريـده لنفسـك، أمـا أنـا فقـد مثَلـت دوري، سـلامٌ لـك.

قـال زيـد هـذا وهـمّ بالذهـاب فنـاداه عمّـه فلـم يلـوِ. أدهـش أُبَيّ مـما قالـه زيـد ورأى الحـق معـه، لكنـه أشـفق عـلى توبـة النعـمان وأراد أن يخفـف عنـه المصيبـة فبعـث إليـه ينبئـه مـما كان مـن عـزم كـسرى ليحتـاط لنفسـه.

هاني

لم يكن عند العرب أسلاك برقية وتلفونية في ذلك الزمن، ولكن الأخبار كانت تنتشر بينهم بسرعة غريبة. بلغ هاني ما أراده كسرى بالنعمان فجمع شيوخ بني شيبان وقصّ عليهم الخبر فغضبوا، فشاورهم في حماية نساء النعمان وأمواله فوافقوه. فركب في جماعة منهم حالًا وسافروا حتى جاؤوا قصر النعمان فوجدوا عنده رسول أُبَيّ ونذيرين آخرين من كلّ صوب، فتشاكوا من جور كسرى فعرض هاني على النعمان رأي قومه وهو أن يودع النعمان نساءه وأمواله عند بني شيبان وأن يرى رأيه بعد ذلك فيما يريد عمله، فسألهم النعمان عما إذا كانوا لا يرون الأفضل الوقوف في وجه إياس بن قبيصة ومحاربته، فقال هاني: إنك أنت يا نعمان وحدك الخصم الذي يريد كسرى أن ينتقم لنفسه منه، فلا أرى من الحكمة أن تعرّض بني لخم وسائر مَن يلوذ بك وتدفعهم إلى الحرب مع إخوانهم العرب، فتتأسس العداوات ويصير يصعب إصلاح ما بين القبائل.

إن إرسال كسرى إياسًا عليك بأربعة آلاف فارس من فرسان العرب لا يخلو من رغبة في تقوية الخلاف بين القبائل، ليؤمّن سيادته علينا فيجب أن نتحاشى سفك دماء بعضنا بعضًا بقدر ما نستطيع، ونصرف أمورنا بالحكمة إلا إذا رأينا ألا مهرب من الدخول في الحرب، فحينئذ لا نكون ملومين إذا دخلناها دفاعًا عن أحسابنا وتبعتها لا تقع علينا.

النعـمان: آراؤك يـا مزدلـف دائمًـا سـديدة، ولـو أصغيْـتُ إليهـا قليـلًا لمـا وقعنـا في هـذه الورطـة.

هـاني: لِنَـدَعْ المـاضي وشـأنه ولنفكـر في المسـتقبل. قـلْ لأمّ العـرب المتجـردة أن تتأهـب مـع البنـات للسـفر، وإذا كنـت موافقًـا فانقـل إلينـا أسـلحتك وخيلـك حتـى إذا دعـت الحاجـة إليهـا تجدهـا محفوظـة لـك عندنـا.

- وهـل تـترك كل بني لخم وأهل الحيرة لرحمة إياس؟

- للـضرورة أحـكام وإذا تضايـق العـرب فهـم يرحلـون وحينئـذ نتبـصر في الأمـور.

- أمـا أهـل الحيرة فقد تحضروا وهم لا يسـتطيعون الرحيل ولو تضايقوا.

- نفـس العـربي نزّاعـة إلى الحريـة والاسـتقلال مهـما عـرض لهـا مـن العـوارض، ولكنهـا قـد تصـبر عـلى الضيـم طالمـا هـي تعتقـد أنـه أخـف ضررًا مـن الرحيـل أو الحـرب، فمـن تحـضّر مـن عـرب الحـيرة إذا تضايقـوا لا ريـب يرحلـون ويلحقـون بـك وبنـا أينـما كنـا. أمـا الآن فيجـب أن نرحـل حـالًا لأننـا لا نعلـم مـاذا يجـري في المدائـن وعنـد إيـاس فيجـب أن نقتصـد في الوقـت لنسـتعد للطـوارئ.

- حسـنًا هبّـوا إلى خيولكـم وخـذوا معكـم النسـاء وأنـا أتبعكـم في هـذه الليلـة بخيـلي وأمـوالي وأسـلحتي.

الحيرة

شَـعَر أهـل الحـيرة بحركـة غـير اعتياديـة في قـصر النعـمان، فأخـذوا يتساءلون عـن حقيقتها ونامـوا وهـم يتحدثـون بها، فاسـتيقظوا في الصباح وإذا بخيـول إيـاس تحـدق بالمدينـة مـن أطرافهـا الأربعـة، وتقـدم إيـاس في سريـة مـن الفرسـان إلى قـصر النعـمان فوجـدوه خاليًـا وليـس فيـه إلا واحـد مـن العبيـد، فأخـبر هـذا إياسًـا بـأن النعـمان رحـل بالأمـس بنسـائه وبخيلـه وأمواله، فاحتـل إيـاس القـصر ووزع فرسـانه في مواقـع حصينـة وبـثّ العيـون والأرصـاد لرصـد أخبـار النعـمان وأخـذ الاحتياطـات الكليـة لأنـه كان يتوقـع الهجـوم عليـه في كل سـاعة.

أمـا أهـل الحـيرة فدهشـوا بـادئ ذي بـدء مـن هـذه الحركـة التـي كانـت فجائيـة عليهـم، لأنهـم لم يكونـوا عالمـين كل العلـم مقدماتهـا، ولكنهـم بعدمـا سـكنت أحوالهـم أخـذوا يفهمـون بالغريـزة أن هـذه حـال الأمـم المتفرقـة الكلمـة المنقسـمة عـلى بعضهـا. فإدارتهـا تبقـى بيـد المديريـن الذيـن يحكمـون فيهـا كـما يشـاؤون ويبدلـون مـن أحوالهـا وأمورهـا وحكامهـا مـا شـاءوا وشـاءت أحوالهـم، وأخـذوا يلعنـون إياسًـا، الـذي جعـل نفسـه آلـة بيـد كـسرى ليخلـف النعـمان الـذي عـدل فيهـم وعمـل لسـعادتهم وطمأنينتهـم إلى حـدّ أنهـم لم يعـودوا يشـعرون بثقـل يـد الفـرس عليهـم، وأوجسـوا مـن إدارة إيـاس، ولكنهـم لم يفكـروا في المقاومـة إذ شـعروا أنهـم كرعيـة لا راعـيَ لهـا فكظمـوا غيظهـم وصـبروا عـلى القـدر وانتظـروا الفـرج مـن اللـه.

أما إياس الذي لم يكن قد اطمأن بعد على موقعه فارتأى ألا يغير شيئًا من إدارة النعمان لئلا يستنكر أهلها، ومع ذلك فالأهالي لم يثقوا به ونظروا إليه نظر العدو والغاصب، ولما علم إياس بما فعل النعمان لم يجرؤ على مهاجمة بني شيبان لعلمه بشدة بأسهم وعلوّ همة فارسهم هاني، فأرسل إلى كسرى يخبره بالواقع فأمر هذا بتجييش الجيوش وإعداد المعدات، وجهّز جيشًا عدده ١٢ ألفًا بقيادة كبير من قوّاده اسمه الهامرز وأرسله إلى إياس، ثم جيّش جيشًا آخر وعدده ١٢ ألفًا أيضًا وعقد لقائد آخر يسمى هرمزد عليه، وألحقه بالأول، وكان إياس ينتظر المدد على جمر الغضا لأنه سمع أن بني شيبان كانوا قد اتفقوا مع بني عمهم بكر بن وائل، وأنهم كانوا يسعون ليضموا إليهم سائر قبائل ربيعة.

أُبَيّ في بكر بن وائل

أما أُبَيّ فبعد أن رأى ما آلت إليه دسيسة ابن أخيه وكاد اليأس يتغلب على نفسه لولا أنه تشدد ورأى أنّ من الحكمة أن ينذر إخوانه العرب بهذه الاستعدادات، فغادر الإيوان ليلًا وسار إلى بكر بن وائل الذين كانوا نازلين بذي قار، وهو مكان على مسيرة خمس مراحل مما يلي طريق البصرة من المدينة التي بزغ منها فيما بعد فجر سعد العرب محمد بن عبد الله، ودخل على هاني بن مسعود وعرفه بنفسه وكان النعمان لا يزال عنده فقصّ عليهم كلّ ما يعلمه من الأخبار، فجمع المزدلف بني عمه من عظماء وائل وأنبأهم الأخبار التي جلبها أُبَيّ وقال: أرى أن تجعلوا حصونكم سيوفكم ورماحكم وتوطّنوا أنفسكم على الموت. قالوا: بلى والله ليس لنا إلا ذلك، فإما أن ندافع عن أحسابنا أو نموت كرامًا.

أما النعمان فاعترته قشعريرة لسماع هذه الأنباء المؤلمة، وتمثلت أمامه جريمته الفظيعة التي جلبت هذا الخطر العظيم فوقف في الرؤساء خطيبًا وقال: هذه ثمرة عدولي عن سيرتي الأولى، فلو بقيت وإياك يا مزدلف نعمل على جمع كلمة القبائل لوصلنا بعد زمن غير طويل إلى تأليف كتلة محترمة في نظر كسرى تحمله على عقد محالفة معنا على أساس المساواة، فيكون ذلك في مصلحتنا ومصلحة جيراننا الفرس معًا. أما وقد حِدتُ عنها ولم أصغِ لمشورتك فقد جلبتُ بعملي كل هذا الشر على العرب والفرس معًا. أما الآن فما دامت نسائي وأموالي وخيلي وأسلحتي وديعة في ذمة إكرام العرب فأنا أذهب بنفسي إلى

كسرى وأخبره بأن زيدًا حَرَّف أقوالي في الترجمة، فإما أن يصدق ويعدل عن غيِّه وإما أن يكتفي بقتلي ويحجب الدماء البريئة فلا أكون أنا الجاني عليها.

المزدلف: إنك لن تذهب فذهابك يحطّ من مكانتك، فابقَ لتمدّنا برأيك الصائب وتكون لنا قدوة في الحرب. إن كنت ترغب في الموت فخيرٌ لك أن تموت في حال الدفاع من أن تلقي بنفسك في يد المنتقم.

النعمان: لا تعترض يا مزدلف فلعلّي أستطيع أن أحوّل كسرى عن عزمه وأمنع هذا الشرّ المستطير. ونادى النعمان بعبيده أن اسرجوا الجياد، وذهب إلى فسطاط نسائه ليودعهنّ، فطلبت المتجردة أن ترافقه فأبى عليها ذلك لتبقى مع البنات وتضمد جراح جرحى العرب، وتقدمت سعاد والحرقة وكانتا قد تسربلتا بلباس الفرسان ومنطقتا بالسيوف وقبّلتا يديه.

فقالت الحرقة: تشجع يا أبتي فلسوف تعود وتسمع عن فعالي فقد علّمتني الفروسية والصبر على المكاره للأيام العصيبة، وها قد تعاهدت مع خطيبي على حماية ظهر شقيقه بطل بني شيبان العظيم، فليكن قلبك كبيرًا.

خرج النعمان وقد انحدرت دمعتان كبيرتان على لحيته الحمراء مسحها بردن ثوبه، فوجد بعض عظماء بكر بن وائل وفي مقدمتهم هاني بن مسعود وفريق من العبيد واقفين على مسافة مع خيولهم، فصافح العظماء وقال لهاني: لنعتبر بالعبر فلا حياة للعرب بغير التفاهم

والتضامـن، في مثـل هـذه الأحـوال التـي وقعنـا فيهـا نشـعر بحاجتنـا إلى القـوة المتحـدة، ألا تظـن أن مجـرد وجودهـا كان يحـول دون هـذا الخطـر مـن أساسـها؟!

فأجـاب هاني: لا يوجد ريب في ذلك.

فقـال النعـمان: إذن أعانكـم اللـه عـلى الفـوز والنجـاة، فاعمـل للغايـة النبيلـة واذكـر أن كـسرى يحاربنـا بقـوم منـا. ولولاهـم لكنـا في نظـر كـسرى وسـائر جيراننـا محترمـين.

قال هذا وامتطى جواده برشـاقة وسـار في نفر من العبيد إلى المدائن.

رسول إياس

مـضى النعـمان في سـبيله ودعـا العظـماء مـع ابـن مسـعود إلى خيمتـه، ومـا كادوا يسـتوون في المجلـس حتـى جـاء أحـد الشـيفة برجـل وقـال لهـاني:

رأينـا هـذا مقبـلًا حامـلًا رايـة بيضـاء، وقـال إنـه رسـول مـن إيـاس إليـك فَأَتَيْنـا بـه. فتقـدم الرسـول ودفـع إلى هـاني كتابًـا وإذا فيـه مـا يـلي:

«إلى هاني بن مسـعود وجميع عظماء وائل من إياس بن قبيصة،

الوالي من قبل ملك الملوك كسرى سـلامٌ،

إني أخبركـم إحـدى ثـلاث خصـال، إمـا أن تسـلّموا تركـة النعـمان وأهلـه فتَسْـلَموا، أو تسـيروا ليـلًا في الـبراري فأنقـل لكـسرى أنكـم هربتـم لأني لا أريـد قتالكـم، أو تـبرزوا للحـرب».

فقامـوا كلهـم بعـد أن سـمعوا الكتـاب وذهبـوا إلى خيمـة المتجـردة عقيلـة النعـمان وطلبـوا منهـا أن تعاونهـم برأيهـا فقالـت:

يـا وجـوه العـرب، إن إياسًـا يقـول إنـه لا يريـد قتالكـم، وهـو قـول حـق فإنـه لا يريـد سـوى عـرش النعـمان، وقـد ارتقـى إليـه بخيانـة قومـه وخيانـة تقاليدهـم خيانـة دنيئـة. إن إياسًـا الأمـير العـربي يطلـب مـن إخوانـه العـرب أن يسـلّموه خفارتهـم نسـاء العـرب ليقدمهـن سراري لكـسرى ثمـن إمـارة الحـيرة. فـإن كنتـم ترضـون أن يشـتري كبراؤكـم المناصـب بمثـل هـذه الدنايـا فسـلّمونا إلى إيـاس، فأنـا وبنـاتي لا نـرضى أن نعيـش في قـوم يبذلـون شرفهـم

ليحافظوا على حياة الذل أو ليرتقوا في المناصب.

فقال حنظلة بن يسار: لم يسبق لبكر بن وائل أن خفروا ذمة أحد من الناس يا أمّ العرب ليخفروا ذمة النعمان اليوم، فانعمي بالًا.

وقال زيد بن حماد اليشكري: ما أتينا إلا لننتفع بأصالة رأيك.

فقالت المتجردة: لستُ في مقام إبداء رأيي الآن فأنتم أدرى بقوة إياس والفرس وقوتكم وموقفكم ومقدار تضامنكم. فتآمروا فيما بينهم وكتبوا إلى إياس ما يلي:

«من هاني إلى ابن قبيصة

«ليت أن لا أسلم الحلقة

ولا سعاد وأختها حرقة

حتى يظل الريش منجدلا

أو تكدم البيض من الدرقة

أما أن نسلم خفارتنا فذلك لا يكون أبدًا، إنا ثابتون لقتالك وقتال الفرس ولا تهمّنا كثرة عديدكم فأنتم تقاتلون في سبيل البطل ونحن ندافع عن الذمة. وقتال مثلك فرض واجب انتصارًا لشرف التقاليد، فقد صرت عارًا على بني قومك الذين تطلب قتالهم لأنهم لم يسلّموك ما في ذمتهم، لأنهم لم يسلموك نساء النعمان لتقدمهن سراري لكسرى فقد كان يجب عليك لو كنت عربيًّا شريفًا وزعيمًا محترمًا أن تحول

فكـر كـسرى وتبـين لـه أضرار عملـه بنـا وبالفـرس معًـا. إن العـرب لا يمانعـون في مصاهـرة الفـرس لإحـكام روابـط القـربى ولكـن لا يَشـتري رضى الملـوك بتضحيـة الـشرف إلا مـن كان كابـن قبيصـة. واعلـم أنـتَ وكـسرى أن فَـرَس الباغـي عثـور، وأن ولايتـك هـذه ولايـة ذل. والزعامـة القائمـة عـلى غـير تأييـد الشـعب وحمايـة تقاليـده وحقوقـه باطلـة. فمجـدك المسـتعار قريـب الـزوال. أمـا العـار فسـيلصق باسـمك إلى أبـد الدهـور، فاسـتعد ليـوم قمطريـر».

دفـع هـاني الكتـاب إلى رسـول إيـاس وقـال: خـذ هـذا إلى سـيّدك الصغـير النفـس. وحانـت منـه التفاتـة وإذا بالحرقـة بنـت النعـمان واقفـة وراءه بـزيّ فـارس، وتفرسـت فيـه بعينيهـا الواسـعتين السـوداوين العربيتـين، فـما إن وقـع نظرهـا عليـه وأبـصر هـو سـناء وجههـا الجميـل حتـى قـال في نفسـه: هنيئًـا لهـلال خطيبـك، فقـد جمعـتِ بـين جـمال النفـس والصـورة. وقـال لهـا:

بماذا عسـاني أسـتطيع أن أخدم كريمة ملك العرب المطاع؟

فقالـت بصـوت رخيـم: لعـلي أجـد نعمـة في عينيـك فتمنحنـي شرف حمايـة ظهـرك في موقعـة ذي قـار العتيـدة.

قـال: أخـاف أن تُلحـقَ بـكِ سـيوف الأعـداء أذى. أمـا تعتمديـن خطيبـك بهـذه المهمـة؟ فأجابـت: اتفقـتُ وإيـاه عـلى أن يقاسـمنا هـذا الـشرف إذا رضيـتَ أنـت. أمـا سـيوف الأعـداء فـلا تمسّـني وهـاني وأبطـال بكـر بـن وائـل وبنـي شـيبان ولخـم حصـوني.

فقال: لكِ ذلك.

فخرجت من عنده تتخطر معجبة بما نالت ويدها على قبضة سيفها. فالتفت هو إلى زعماء العرب وقال: لله درّها، إنها ستخلف أباها وأمها فقد أخذت منها أحسن ما فيها. فقال أحد العظماء: هنيئًا لأخيك فإنه سيصير بها أعظم منك. فقال هاني: بالصواب نطقت.

الزعامة وضجة الحرب

ما كاد هذا المشهد الجميل، مشهد أميرة عربية تطلب في حضرة عظماء القبائل أن تتولى شرف حماية ظهر بطل بني شيبان ينتهي حتى دخل رسول من قبل أُبَيّ بن زيد يحمل كتابًا يقول فيه: لقد أمر كسرى بطرح ملك الحيرة تحت أقدام الفِيَلة فداسته فمات، ولكنه مات موت الأبطال العظام لأنه أبلغ كسرى أنه أتى إليه ليس خوفًا منه لأنه كان في وسعه أن يمتنع في قبائل العرب، ولكنه جاء ليحقن دماء الفرس والعرب معًا. أما كسرى الذي غلبت عليه عواطفه فلم يلتفت، فمشى النعمان إلى الموت هازئًا مبتسمًا.

فضج العظماء: يا للعارّ إلى الحرب. يا لثارات العرب إلى الحرب! فوقف بشر بن شريك خطيبًا وقال:

أيها العظماء والشيوخ نحن:

إذا مات منا سيد قام سيد

قوول لما قال الكرام فعولُ

مات النعمان فيجب أن نختار لنا زعيمًا يقوم مقامه. فالشرق لا يعيش بلا زعامة وإلا صارت أمورنا فوضى وضعفت عصبيتنا وتضعضعت جامعتنا التي مضى على النعمان وهاني زمنٌ وهما يعملان لها. فقط يجب أن يكون الزعيم من أهل الحَسَب وممّن توفرت فيهم شروط الزعامة، يغار على تقاليدنا وينكر نفسه في مصلحتنا ويحترم آراءنا،

فتجتمع كلمتنا عليه ونكون كالبنيان المرصوص.

فقال أحد الزعماء: بالصواب تكلمت وكل واحد من هؤلاء العظماء جدير بالزعامة. ولكني أختار لها هاني بن مسعود.

فأمّن الحاضرون.

فقال زيد بن حماد اليشكري: لا تنسوا أن تأخذوا رأي أم العرب المتجردة في ذلك لأنها اشتهرت بأصالة الرأي. ويجب علينا ألا نبخسها مقامها بعد وفاة زوجها ملك العرب النعمان.

فقال هاني: لله درك يا زيد ما أطيب عنصرك! فأرى أن تذهب برفقة حنظلة وتخبراها بما حلّ بالنعمان وتطيّبا باسم العرب خاطرها وخاطر بناتها وتستشيرانها في أمر الزعامة، فَفَعَلا. ولما أخبراها بموت النعمان لم تقوَ هي ولا سعاد ولا الحرقة على حبس دموعهن، ولكنها تجلدت وقالت:

كان النعمان عربيًّا وعاش للعرب، وإني أعلم يقينًا أني وبناتي سنَلقى في نفس كل فرد من نفوسكم الكبيرة نعمانا، فعسى أن يكون موت النعمان سببًا لتقوية رابطتكم لتدافعوا عن أحسابكم، وإني إذا وافقتموني أرى أن تقيموا هاني بن مسعود عليكم زعيمًا، فإنه فتى شديد المراس في الحرب، أصيل الرأي، شديد الحزم، رقيق الجانب، كريم الجديْن، نجمُ سعدِه في صعود، فخرجا من عندها وأخبرا العظماء برأيها، فللحال

وقـف الجميـع واسـتلوا سـيوفهم وأقسـموا عليهـا وبالإنجيـل الطاهـر أن يخلصـوا النيـة لهـاني الـذي شـكرهم وقـال:

واللـه مـا كنـت أتمنـى إلا أن يكـون للنعـمان غـلام لنوليـه الزعامـة علينـا اعترافًـا بمـا لبيـت المنـذر مـن الفضـل عـلى العـرب.

وليـس أكـبر عـارًا مـن اغتصـاب الحـق مـن ذويـه. أمـا الآن فـإني أقبـل الزعامـة مؤقتًـا في هـذا الزمـن العصيـب لا لأني أسـتحقها كواحـد منكـم، بـل لأنكـم هكـذا أردتـم ولأني راغـب في خدمتكـم وتنفيـذ مشـوراتكم والمحافظـة عـلى حـق النعـمان بسـيوفكم، فلنتأهـب للحـرب. لدينـا مـن خيـول النعـمان ودروعـه وعدّتـه مـا يسـلّح سـتمئة فـارس، فـأرى أن نوزعهـا عـلى أشـداء قومنـا لنسـتعين بهـا عـلى القتـال، فـإن سَـلِمنا رددناهـا إلى ذويهـا وإلا فهـي مأخـوذة.

فاستحسـنوا رأيـه، ووافقـت عـلى ذلـك امـرأة النعـمان، ثـم تعاهـدوا فيـما بينهـم عـلى ألا يخفـروا ذمـة النعـمان حتـى يموتـوا عـن بكـرة أبيهـم في الحـرب لتكـون لهـم المعـذرة بـين النـاس.

لما أنبأ الشيفة هانيًا بظهور طلائع جيش إياس، أسرعت عطفة بكر بن وائل إلى هودجها وكانت ابنة حنظلة بن يسار، وهي فتاة رشيقة القوام جميلة الصورة حنطية اللون، وركبت معها المتجردة، وركبت امرأة هاني بن مسعود هودجها ومعها سعاد، وكان مع كل عطفة بضعة هوادج من بنات أشراف العرب، كلهن محلولات الشعور المرخي على أكتافهن.

فاستعرضت كل عطفة فرسان قومها وهم ذاهبون ليصطفّوا للقتال، وكنّ يقلنَ للفرسان وهم يمرّون بهنّ يتناخون ويتكنون بأسمائهنّ وبأسماء أخواتهنّ: «نشوفكم اليوم يومكم». وكلما مر بطل من الفرسان وأرعش رمحه أو حسامه المجربين وتكنى كانت إحدى الفتيات تزغرد له فيطير قلبه حماسة.

اصطف العرب للقتال وكان هاني بأبطال بني شيبان ولخم في القلب، وحنظلة بن يسار على ميمنة بكر بن وائل، وبشر بن شريك على ميسرتهم، فتقدمت عطفة بني شيبان بموكبها وأناخت جِمالها وراءهم، وانقسمت عطفة بكر بن وائل إلى قسمين وأناخت جِمالها وراء ميمنة المعسكر ومسيرته فارتدّ حنظلة بن يسار على جِمال النساء وقطع حزم رحالها، وأراد بذلك أن يمنع القوم عن الحرب إذا دارت الدائرة عليهم لأن العرب الأكارم لا يهربون ويخلّفون نساءهم سبايا، ولقّبته سعاد مقطّع الوضين.

وبـرز سـبعمئة رجـل مـن الصفـوف وقطعـوا أكـمام أقبيتهـم مـن لـدن مناكبهـم لتخـفّ أيديهـم عـلى ضرب السـيوف، فكـبر قلـب المتجـردة لهـذا المشـهد الحـماسي فزغـردت لهـم، وقيـل إن هـذه هـي المـرّة الوحيـدة التـي زغـردت فيهـا المتجـردة في حياتهـا ولذلـك تفـاءل العـرب كثـيرًا بهتافهـا.

ومـا هـي إلا سـاعة حتـى ظهـرت طلائـع جيـوش إيـاس الـذي كان في القلـب، وجيـش الهامـرز عـلى ميمنتـه والهرمـزد عـلى ميسرتـه.

ثـم أخـذ جيـش الفـرس يتقـدم الهُوَيْنـا، فـبرز هـاني بـن مسـعود مـن بـين الصفـوف ووراءه مـن جهـة اليمـين شـقيقه هـلال، ومـن جهـة اليسـار الحرقـة، وكان الثلاثـة عـلى ظهـور ثلاثـة مـن حمـر الخيـل العتـاق يركّضونَهـا خَبَبًـا وهـي تريـد أن تنهـب الأرض.

فدنـا هـاني مـن حنظلـة ومـن بـشر وقـال لهـا: مكانـك تُحمـدي أو تسـتريحي. ودعـوا الفـرس يدنـون منـا ويبادئونـا بالقتـال ثـم عـاد هـو ورفيقـاه ووقـف في رأس بنـي شـيبان ولخـم، وصمـت العـرب برهـة كأن عـلى رؤوسـهم الطـير. فسـمع صـوت إنشـاد يخـرق طبقـات الهـواء، فأنصـت الجميـع لذلـك النشـيد الرخيـم وإذا بالحرقـة تقـول:

تسربلنـا الحديد غداة بؤسٍ

لحرب بالدوائر قمطرير

وما تحت الحديد أشـد منه

مـن الأعداء من غلل الصدور

كأن النـاس وافونا جميعًا

بـذي قار لتحليل النذور

فحيّتنـا المنية حين جاءت

ودارت كأسها بيد المدير

فالتفت إليها هاني وقال: طِبتِ نفسًـا يا بنية.

فتقـدم جيـش الفرس حتى اقترب من جيش العرب.

فـبرز بـشر بن شريك أمام أصحابه وأخذ يرتجز.

قد جدّ أعداؤكم فجِدّوا

مـا علّتي وأنا صلب جلد

والقوس فيها وتر غرد

مثل ذراع البكر أو أشـد

قـد جعلت أخبار قومي تبدو

أمـا المنايا فليس منها بدّ

المعركة

لعبت النخوة في رؤوس أبطال العرب لهذه المظاهر، واستعدّوا للنزال، وبينما هم ينتظرون الأمر بالهجوم برز الهامرز وكان من أعاظم أبطال الفرس وتقدم بثبات وخيلاء إلى أن وقف بين الصفّيْن فصاح بأعلى صوته بالفارسية: مرد مرد.

فسأل زيد بن حماد اليشكري: ماذا يقول هذا البطل الصنديد؟

فقالوا له: إنه يطلب المبارزة، رجلًا لرجل.

فقال: وأبيكم لقد أنصف. وخرج إليه فتبارزا وتجاولا وتطاعنا، وكانت عيون العرب والفرس كلها شاخصة إليهما.

والفرسان يحبسون أنفاسهم، وينتظرون نتيجة الكفاح بين هذين الفارسين العظيمين، وأخيرًا اختلفت بينهما ضربتان، وكان السابق في الضرب اليشكري، فوقعت ضربته على منكب الهامرز، فقطعت الذراع، وأبانت المنكب فسقط قتيلًا، وكان هو أول قتيل وقع فتباشرت العرب، وعدّوا هذا الحادث طليعة النصر.

واشتعلت من بعد ذلك نار الحرب، حول القتيل، لأن العرب أرادوا أن يكسبوه، وأراد الفرس أن يأخذوه.

فشدد الفرس في الهجوم على العرب وتكاثروا عليهم فردّوهم حتى هوادج النساء اللواتي صِحْنَ برجالهن وحللن عصاباتهن وأخذن يلوّحنها

في الهـواء وينخـين أسـاورة الفـرس ليسـبوهن إذا كان العـرب لا يحمونهـن، فثـارت النخـوة في رؤوس فرسـان العـرب وصـبروا للفـرس صـبرًا صادقًـا، حتـى هجـم حـر الظهـيرة، فعطشـت الفـرس عطشًـا عظيـمًا وكان قـد قتـل وجـرح خلـق كبـير مـن الفريقـين، فحينئـذ بـرز هـاني بـن مسـعود، بأربعمئـة فـارس مـن الفرسـان المجربـين، حـماة العطفـة الذيـن لا يشـتركون عـادة في القتـال إلا إذا خـشي أن تسـبى العطفـة، وشـدد الهجـوم عـلى الأعاجـم فتقهقـروا قليـلًا، ولمـا رأى العـرب الذيـن كانـوا في صفـوف إيـاس طـراد هـاني خافـوا أن يعاقبهـم إذا انتـصروا فانسـحبوا مـن صفـوف الأعاجـم وولّـوا هاربـين.

أمـا الأعاجـم فسـدوا الثُّلمـة ومـلأت صفوفهـم القلـب حـول إيـاس مخافـة أن يشـطرها العـرب إلى شـطرين، فاشـتدّ نابـض الحـرب بذلـك وصـاح بهـم هـاني: يـا لثـارات النعـمان، يـا للدفـاع عـن الأحسـاب! اذكـروا ذمـة النعـمان. وإذا بسـعاد شـقيقة النعـمان تقدمـت في نفـر مـن فرسـان بنـي لخـم، وكانـت قـد ركبـت جـوادًا مـن جيـاد القتـلى وصاحـت بالعـرب: هـل آسى وأنتـم عصابـة رأسي؟ ودفعـت جوادهـا نحـو الفـرس، فاندفـع هـاني وسـائر بنـي شـيبان ولخـم وراءهـا لأنهـم خافـوا عليهـا وحدّقـوا بهـا مـن الجانبـين، فحانـت التفاتـة مـن الحرقـة التـي لم تكـن تخـاف عـلى سـعاد لأنهـا تعـرف شـدة مراسـها، فـرأت فارسًـا ملثـمًا مقبـلًا مـن جهـة الـشرق كهبـوب الريـح فدفـع جـواده بـين صفـوف الأعاجـم فجندلـوه للحـال، فوجهـت أنظـار خطيبهـا إليـه، وكان هـاني قـد رآه واسـتغرب هجومـه الجنـوني.

حاول الفرس أن يختطفوا سعاد التي كانت تقاتل قتال الأبطال الأشداء بمهارة غريبة، ولكن حُماتها كانوا يصدونهم ببأس شديد ويسهلون لها سبيل الانتقام.

أراد هاني أن ينهي المعركة وكان قد شعر بضعف مقاومة الفرس الذين أنهكهم العطش والتعب الذي كان العرب يصبرون عليه. فألقة نظرة عامة على ساحة الحرب، فرأى أن قوة الفرس معظمها موجهة على سعاد ومن معها من العرب. فهجم بخيله بسرعة على القلب ففصل الفرس وعزل فريقًا منهم عن إياس قبل أن يتمكنوا من الارتداد عليه وتقوية تلك النقطة. وكان إياس قد تولى قيادة جيش الهامرز فأراد أحد رجال إياس أن يحتال هاني فتلقته الحرقة بضربة سيف فجندلته، وشدد هاني الهجوم وصاح برجاله: هذه هي الوقعة الفاصلة فجِدّوا. فظهر عند هذه الصيحة الكمين من وراء الفرس ففت في عضد هؤلاء وولّوا هاربين، أما هاني فعزل إياسًا وشدد في مطاردته حتى أدركه وأراد أن يعاجله بضربة سيف فتقدمت الحرقة بأسرع من البرق وقالت: اعفُ مولاي، إنه لا يستحق شرف أن تقتله بسيفك، اترك خائن أمته حيًّا ليتعذب، فصعد الدم إلى رأس إياس لدى سماعه هذا التقريع، واستل سيفه وبقر به بطنه فسقط قتيلًا، فترجلت الحرقة لتضمد جراحه فوجدته قد مات.

كانت الشمس قد آذنت بالغروب عند انتهاء الموقعة، فظهر في الأفق نور لامع نحو دقيقتين وأبصره كل العرب، فتفاءلوا به وصاروا منذ ذلك الحين يتوقعون حدوث حادث عظيم في تاريخ العرب.

عـاد هـاني بقومـه فبلغـوا سـاحة الحـرب فوقفـوا كلهـم فيهـا خاشـعين وحيّـوا جثـث القتـلى. فقـال هـاني: يـا لعظيـم الخسـارة، فقـد أزهقـت هـذه النفـوس الكبـيرة كلهـا سـدى، لقـد كان في إمـكان النعـمان لـو أطـال أناتـه وتـروّى قليـلًا، وكـسرى لـو لم يغـترّ بقوّتـه ويبطـش أن يحقنـوا الدمـاء ويتجنبـوا خسـارة هـؤلاء الأبطـال الإخـوان لينفعـوا البـلاد التـي ربّتهـم. فتهيـب السـامعون وصمتـوا خاشـعين، ثـم تخلـل السـكوتَ العميـقَ صـوتُ نـداءٍ ضعيـف يقـول: يـا هـاني! فقالـت الحرقـة: مَـن المنـادي لعلّـه جريـح يسـتغيث؟ وأصغـت فتكـرر النـداء فذهبـوا إلى جهتـه وترجلـت الحرقـة وخطيبهـا فوجـدوا الجريـح ملثـمًا، فأماطـوا اللثـام عـن وجهـه فعرفتـه الحرقـة، زيـد بـن عـدي، فقالـت: أأنـت زيـد ذلـك الفـارس الـذي اندفـع بجنـون عـلى صفـوف الفـرس؟ فأجـاب الجريـح وكان في الحقيقـة هـو زيـد بـن عـدي:

نعـم أنـا هـو ذلـك الفـارس، أنـا أصـل كل هـذا البـلاء، وقـد ندمـت عـلى مـا فعلـت، فاسـتغفروا لي مـن بيـت النعـمان ومـن هـاني، أمـا الفـرس فقـد انتقمـوا لأنفسـهم مـن دمـي. ومـن أنـتَ أيهـا الفـارس الكريـم؟

فأجابتـه الحرقـة: أنـا الحرقـة بنـت النعـمان، وقـد غفـرت لـك فهـل ننقلـك إلى مضاربنـا، إنهـا قريبـة منـا.

زيـد: كلا، بـل اسـقيني مـن يـدك الكريمـة شربـة مـاء وبـرّدي عطـشي فـإن أحشـائي تـكاد تلتهـب.

فتناولت مطرة صغيرة كانت مربوطة إلى سرج جوادها، وأسندت رأسه لتبرد ظمأه، أما هو فأسلم الروح.

فقالت الحرقة والدمع يترقرق من مقلتيها: نَمْ مستريحًا، عفا الله عنك. وقالت لهاني بصوت كئيب: مات وهو يتألم ويظمأ، وعادت فركبت هي وخطيبها جواديهما.

ردّ الحق إلى نِصابه

التفت هاني إلى عظماء العرب الذين كانوا يحيطون به وقال: هلمّوا بنا نتمّ أعمالنا. فذهبوا إلى منازلهم واستراحوا تلك الليلة، ولما أصبح الصباح دعا هاني المتجردة وعظماء بني لخم وشيبان وبكر بن وائل إلى ديوانه، وأجلس المتجردة وشقيق النعمان إلى جانبها، وجلس سائر العظماء إلى جانبيهما، وتقدم الشعراء وقالوا قصائدهم، ومما قاله عمر بن ثعلبة:

يا يوم ذي قار سُقيت من الحيا

يغسل من دم الحيين

عمري لقد عطفت علينا تغلبٌ

وشهابها اللماع ذو الرمحين

فانجلت الظلماء بابن نويرة

وتجلت الغمّاءُ عن ظفرين

ومما قاله ظليم بن الحرث بن حلزة اليشكري:

وأقصرتُ عن وصل الحسان موليًا

إلى صهواتٍ من سوابق شُرَّب

إلى كل صنديد يسابق ظله

وكل رقيق الشفرتين مُشطب

أغادر أسد الحرب صرعى بعاملٍ

وأبيض قطاع بكف مرسب

وقال بكير بن الأصم:

هم يوم ذي قار وقد حمس الوغى

خلطوا لهاما جحفلا بلهام

خربوا بني الأحرار يوم لقوهمُ

بالمشرفي على صميم الهامِ

والقصائد طويلة اكتفينا بشواهد منها. وبعد أن فرغ الشعراء من شرح قصائدهم وقف هاني وقال:

والله يا أبناء العم إني آسف على مَن قتل مِن أبطال الفرس بقدر أسفي على قتلانا، وكنت أتمنى من صميم فؤادي أن تُجتنب هذه الواقعة حقنًا للدماء البريئة، ولكن هي غلطات الملوك والزعماء التي يجب أن يعتبر بها الخلف بعد السلف لئلا يتكرر وقوعها، فمسؤولية الزعيم كبيرة ولذلك ينبغي أن يكون واسع الصدر كثير التروي حيّ الضمير لئلا يضحي بالعباد ، حكيمًا شريفًا بعيدًا عن الأنانية فلا

يضحّي بشيء في غير مصلحة قومه الهامّة. ولكن لكل حادث حسنات، مثلًا له سيئات فوقعة ذي قار ستخلد للعرب في التاريخ أحسن ذكر، ليس لأنكم حاربتم وانتصرتم فالحرب بين الأمم سجال ولكن لأنكم دافعتم عن أحسابكم وبذلتم دماءكم لتحافظوا على ما في ذمتكم. فكلما ذُكر الشرف ذُكِرتم، وكلما ذُكرت الشِّمم ذَكرت العرب أخباركم، وكلما باهى الخلف بسلف باهى أبناء قومكم بما كان منكم في يوم ذي قار. فليعش ذكركم فخرًا ومثالًا لبني العرب مدى الدهر .

أما بعد فإنني أرجو منكم أن تردوا أسلحة النعمان وخيله لنردها لذويها وأنا أرد الحق إلى نصابه. أقلد الزعامة إلى الأرشد من آل المنذر، إلى شقيق النعمان، هذا الجالس في صدر هذا المجلس. فوقف شقيق النعمان وكان اسمه حمادًا وقال:

أشكرك يا هاني، أما أنت فقد استحقيت الزعامة بما قمت به من العمل الجليل الذي حفظت به مجد العرب. وبما أنك صاهرت شقيقي النعمان فأنت أولى بتركته وملكه.

هاني: أنا ما سعيت لمصاهرة النعمان لأرثه ولا انتظرت موت النعمان لأتولى مقامه، ولا أنا الذي حميت نساء النعمان بل العرب الذين حموا حماهنّ. سعيتُ لمصاهرة النعمان لإحكام روابط القربى والألفة، فإذا خالفت حسن القصد حسبت نفسي مختلسًا وصغّرت قدري في نفوس قومي ونفوس هؤلاء العظماء، وفتحت باب المزاحمة والتحاسد بين الزعماء ففرقتُ من حيث كنتُ أريد أن أجمع، وجلبتُ الضعف

مـن حيـث التمسـت القـوة، أَوَمـا رأيـت مـا جلبتـه علينـا وعـلى جيراننـا وإخواننـا الفـرس مزاحمـة إيـاس بـن قبيصـة لأخيـك؟ فلـو كانـت كلمتنـا مجتمعـة عـلى النعـمان لمـا وجـد كـسرى إلى غـير موالاتنـا سـبيلًا.

لم يمـسّ عقـلي بعـد حتـى أتطلـب مـا هـو أعظـم بكثـير مـن مقامـي، وإذا حاولـت فيجـب عليـك وعـلى كل عاقـل أن تقفـوا في وجهـي وترشـدوني لئـلا تهـدم مجـدًا بنـاه أسـلافنا ونقـوّض عـزًّا أقامـه آبـاؤك.

إنـك يـا حـماد إذا وليـت الزعامـة فإنـك تتولاهـا بفضـل أبيـك وأخيـك ومـا قامـوا بـه مـن الأعـمال الجليلـة لخدمـة العـرب، أمـا أنـا وغـيري فـإن كان قـد نالنـا شيء مـما يؤهلنـا لخدمـة قومنـا فقـد اقتبسـناه عنكـم. أفنقاتلكـم بسـلاحكم ونسـلبكم حقًّـا أشركتمونـا فيـه كرمًـا؟ لا وربي أنـا لسـت بالجاهـل الـذي يتحمـل مسـئولية تضليـل العـرب وتفريـق كلمتهـم، إني يـا حـماد أخـشى العواقـب في العـرب، كثـيرون لا يتحوّلـون عـن الحـق ولا يأخـذون بالمظاهـر. فهـؤلاء لا ينكـرون عـليّ وعـلى سـائر مَـن نـال شرف مصاهرتكم أن ننازعكـم في حقـوق أنتـم أوجدتموهـا للعـرب.. أعلـم يقينـا أني إذا احتفظـت بمقامـي أكـون في أعـين العقـلاء والحكـماء والعظـماء الحقيقيـين أعظـم منـي لـو اتخـذت شرف مصاهـرة النعـمان حجـة لسـلب أهلـه حقوقهـم. أنـا أريـد أن أسـتمر في سياسـة النعـمان وهـي أن أجمـع لا أن أفـرق وأن أرفـع قـدر العـرب في أعـين الأمـم لا أن أصغـره، وعليـه فـأني أبايعـك وأرجـو مـن سـائر العظـاء أن يقتـدوا بي. قالـت المتجـردة: بـارك اللـه فيـك يـا هـاني وأكـثر مـن أمثالـك بيننـا لتعظـم أقدارنـا ويعتـز جانبًـا.

وقام سائر العظماء وبايعوا حمادًا فقال:

أيها السادة، قال السيد المسيح: من أراد أن يكون فيكم كبيرًا فليكن لكم خادمًا، فأنا كبير بخدمتكم زعيم بثقتكم.

لقد أرتنا الحوادث نفع التضامن وعلمتنا أن القوة في الاتحاد، فليكن الله معنا.

فوقف الزعماء وتحالفوا على إخلاص بعضهم لبعض وعلى صيانة المصلحة العامة.

ثم بارك الكاهن زواج هلال بالحرقة ولم يقيموا الأفراح احترامًا للقتلى.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان